



جِلَادُ الْإِنْحَادِ

ردود ومناقشات لبعض شبهات ملاحدة العصر

إعداد

عمار بن محمد الأركاني



تحرير وإشراف

د. محمد بن إبراهيم السعيدني د. علي بن محمد العمران

مكتبة إسنابل
للنشر والتوزيع

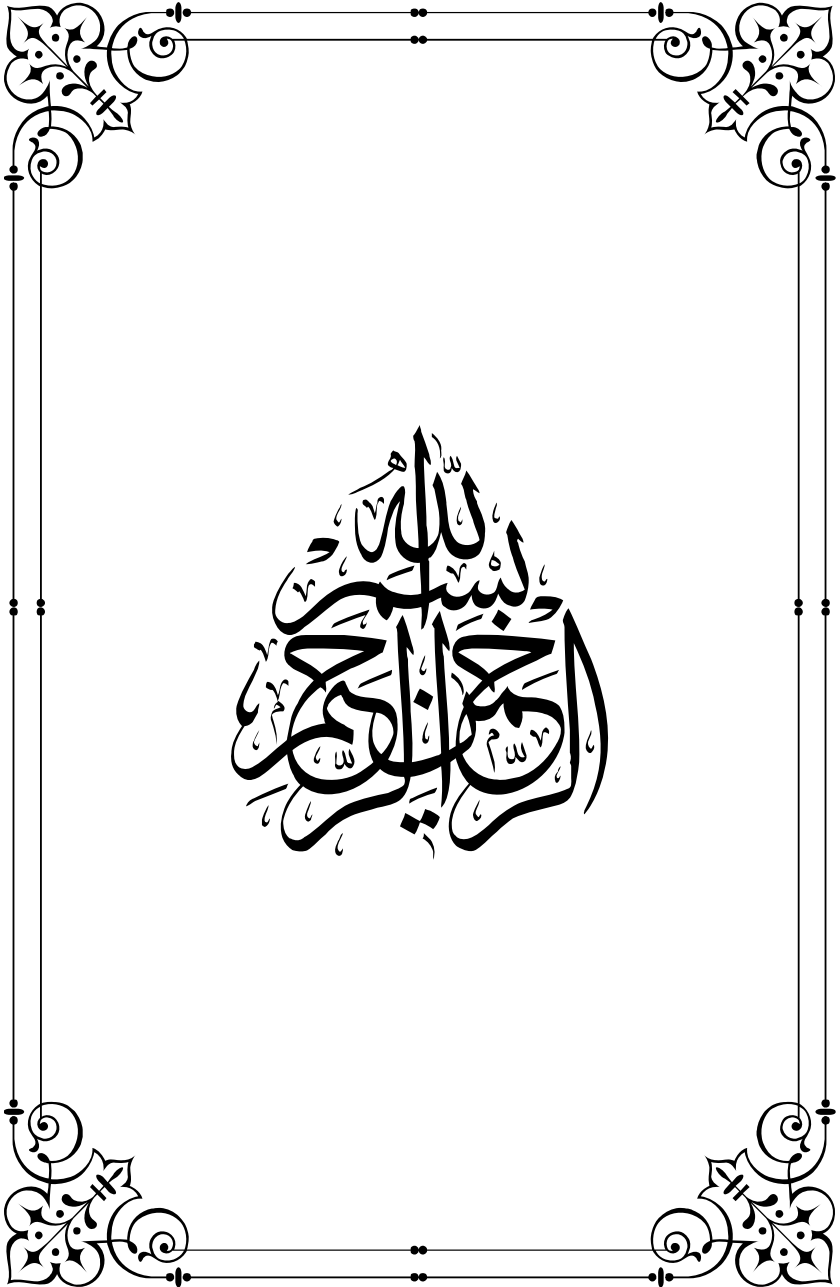
مكتبة إسنابل
للنشر والتوزيع



جلاد الإلحاد



جلاد الالحاد



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

معرفة الله فطريةً بديهيةً ضروريةً، لا تحتاج إلى نظر واستدلال، فهي في غاية الوضوح والبيان، ساطعة البرهان، ثابتة الأركان، إلا أن حولها تدور رحى الإلحاد والملحدين، من غير حجة ولا سلطان مبین، ولا تفسير واضح مقنع للشعور الفطري الذي يلح في داخل كل إنسان.

فالإلحاد ليس أصلًا في البشرية، ولا يمكن أبدًا أن يكون أصلًا؛ لذلك لا يعرف التاريخ أمة من الأمم مسلمة كانت أو غير مسلمة مضت على الإلحاد؛ وإنما يسقط في هذه الهوة أفراد يقلون أو يكثرون في كل عصر من العصور نتيجة لعوامل مختلفة، منها: انتحال الفلسفة التي لا تؤمن بالفطرة مصدرًا للمعرفة، وتستكبر من نسبة عظمة هذا الكون بتفاصيله إلى واحد أحد، أو شيوع

المظالم والكوارث وعجز العقول الصغيرة عن تفسيرها والجمع بينها وبين حكمة الخالق ولطفه ورحمته.

وفي عصرنا الحاضر ظهرت هذه العوامل وغيرها؛ مما أظهر للملحدين صوتاً أوجب كفته بالحجة والبرهان، وكان لـ "مركز سلف للبحوث والدراسات" نصيب من هذا الجلاد مع أعداء أنفسهم وأعداء الله والمؤمنين، ممن حملوا على عواتقهم نشر الإلحاد وترويجه؛ فكانت هذه المقالات التي تضمنها هذا السفر "جلاد الإلحاد".



دلالة المُقَدِّمَاتِ الأُولَيَّةِ على وجود الله

انبهر كثير من الشباب بما لدى الغرب اليوم من تقدُّم في جوانب من الحياة المادية، فافتنوا تبعاً لذلك بأفكارهم ومعتقداتهم، ولا عجب أن يُفتنوا بدينهم، وإنما العجب أن يستمرّثوا ما يخالف بدائه العقول، ألا وهو إنكار وجود الله الخالق الذي خلق الإنسان من عدم، وما من شيء في الدنيا إلا وهو دالٌّ عليه سبحانه^(١).

ومن هنا ظهرت الحاجة إلى الحديث عن أدلة وجود الله سبحانه مع كونها واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار. وقد أشرنا في مقالة (المتكلمون وفطرية معرفة الله) إلى أن أدلة وجوده ﷻ ليست نوعاً واحداً، بل كثيرة ومتنوعة؛ كدليل الفطرة ودليل العقل، وكلها ممّا استدلَّ به السلف^(٢).

(١) ممَّن عبّر عن خطورة هذه القضية الشيخ عائض الدوسري في رسالته الملحقة بكتاب ميليشيا الإلحاد (ص ١٩٣).

(٢) ينظر: موقع مركز سلف للبحوث والدراسات مقال: المتكلمون وفطرية معرفة الله، وهو المقال الثالث من هذه المجموعة.

وفي هذه المقالة سنفصل أول أدلة الفطرة على وجود الله ﷻ، وهو دلالة المقدمات الأولية الضرورية على وجود الله ﷻ.

والمقصود بالمقدمات الضرورية: "القضايا التي يصدق بها العقل الصريح لذاته ولغريزته"^(١)؛ كالعلم بأن كل أمر حادث له سبب، فمثلاً: الطفل الصغير إذا أوذِيَ يبحث عمَّن آذاه ولا يقبل أن يقال: إن هذا حصل بلا سبب^(٢).

ومنها العلم بأن النقيضين لا يجتمعان، فيستحيل عقلاً أن يوجد شيء ساكن ومتحرك في الوقت نفسه^(٣). إلى غيرها من المقدمات البديهية المسرودة في مظانها^(٤).

(١) البصائر النصيرية للساوي (ص ٢٢٠)، وقد عرفها ابن سينا بقوله: "قضايا ومقدمات تحدث في الإنسان من جهة قوته العقلية، من غير سبب يوجب التصديق بها إلا لذواتها". ينظر: النجاة لابن سينا (ص ٦٤)، وللإستزادة في معناها ينظر: بيان تلبس الجهمية (٤/ ٥٦١).

(٢) ذكر هذا المثال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ، ينظر: مجموع الفتاوى (٥/ ٣٥٨)، وذكره الغزالي في الاقتصاد في الاعتقاد (ص ٢٥)، وللإستزادة ينظر: العقل والوجود ليوסף كرم (ص ١٤٢ - ١٤٧)، المنطق الحديث ومناهج البحث لمحمود قاسم (ص ٥٧ وما بعدها)، المونادولوجيا لمؤلفه ليبتينز، ترجمة: ألبير نصري (ص ١٢).

(٣) ينظر: ضوابط المعرفة لعبد الرحمن حسن حبنكة (ص ١٥٦)، وغالب كتب المنطق الصوري تحدّثت عنه.

(٤) ينظر: المعرفة في الإسلام، د. عبد الله القرني (ص ٢٩٧ وما بعدها).

ولا ريبَ في فطرية هذه المقدمات؛ إذ هي ضرورية، فكلُّ إنسان يسلمُّ بها بمجرد تصوُّرها^(١)، وأيضًا لا تحتاج إلى دليل ولا إلى تعلُّم ونظر^(٢)، بل لا يمكن الاستدلال عليها؛ إذ هي قضايا تسليمية، وإلا فما الجواب مثلاً على: لماذا كل حادث لا بدُّ له من سبب؟ لا جواب غير أن طبيعة العقل لا تتقبَّل غير ذلك.

ثمَّ هذه المقدمات لا يمكن الشكُّ فيها أو تصوُّر نقيضها؛ لأنها مقتضى غريزة الإنسان العقلية، ومقتضى فطرته التي لا يتمكن من مقاومتها، ولأنها أساس الاستدلال التي عليها تُبنى المعارف والعلوم بإجماع العقلاء^(٣).

فالشكُّ فيها لا بدُّ أن يستند إلى أمور نظريَّة، وتلك الأمور النظرية لا بدُّ أن تستند إلى هذه المقدمات فيلزم الدور الممتنع^(٤).

(١) العلم الضروري هو: "الذي يلزم نفس العبد لزومًا لا يمكن معه دفعه عن نفسه"، وهذا تعريف ابن تيمية في درء التعارض (١٠٦/٦).

(٢) ينظر: الفصل في الملل والنحل لابن حزم (١٠٩/٥)، درء التعارض (٩٠٣/٣).

(٣) ينظر: درء التعارض (١٠٦/٦)، أبحاث جديدة في الفهم الإنساني، ليتينز ترجمة: د. أحمد فؤاد كامل (ص ٧٦).

(٤) درء التعارض (٣١٠/٣)، ومعنى الدور الممتنع: أن يتوقَّف الشيء على ما يتوقَّف هو عليه، كما في مثالنا يتوقَّف التشكيك في المقدمات الأولية على الأدلة النظرية المتوقَّفة على المقدمات الأولية نفسها.

أضف إلى كل ما سبق أنه لا يختلف البشر في التسليم بها دون طلب دليل، ولو لم تكن فطريّةً لأمكن الاختلاف، ولم يتفقوا على التسليم بها.

إذن هذه المقدمات فطريّة ضرورية في النفوس.

ولكن ثمة إشكال حير العقلاء:

وهو أن واقع الإنسان يؤكّد أن هذه المقدمات لم تحصل له منذ ولادته بالفعل؛ كما قرّر ذلك القرآن: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨]^(١)، وكيف يتفق هذا مع قولنا بأنّ المقدمات الضرورية لا يمكن الاستدلال عليها، فكيف تحققت هذه المقدمات إذًا؟ هذا إشكال قوي^(٢).

والجواب: أن المقصود بفطريّتها أنها موجودة بالقوة منذ ولادته، لا أنها متحققة بالفعل، فالإنسان مفطور على التسليم بها بمجرد تصورها بحيث لا يحتاج إلى برهان؛ لأن الغريزة العقلية تقتضيها بالضرورة.

(١) وقد أكّد المفسّرون هذا المعنى، ينظر: إرشاد العقل السليم لأبي السعود (١٧٨/٣)، روح المعاني للألوسي (٢٠١/٨)، وأيضاً قرّر هذا المعنى (جون لوك)، وآلف في ذلك كتاب (مبحث في الفهم الإنساني).

(٢) كما وصفه الرازي، ينظر: مفاتيح الغيب (٩١/٢٠).

وعلى هذا فليست فطريتها هو مجرد إمكانها، بل وجوب تحققها مع سلامة الحواس والغريزة العقلية^(١).

وإذا كانت هذه المقدمات فطريةً ضروريةً، فمن الذي فطرها؟!

إنه الله ﷻ ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۖ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٤، ٥] فوجود هذه المقدمات يدل ضرورةً على وجود فاطرها الذي هو سبحانه مُبتدئُ المعرفة؛ إذ هو من علمهم بلا واسطة المقدمات الضرورية، والأدوات التي يتوصلون بها للعلوم النظرية، وعلمهم الشرع والدين بواسطة الأنبياء، فالعلم به أصل كل علم^(٢).

هذا حال المؤمن المهتدي بالنور والهدى المنزل من ربه، وأما الملحد الذي ينكر وجود الله سبحانه فإنه لا يجد تفسيرًا مقنعًا لوجودها.

إن الملحد هنا لا ملجأً له غير الحيرة والشك في إحداه، فإن أبى إلا العناد والمكابرة، رجع بالتشكيك على أصل المسألة، فينكر فطرية هذه المقدمات، ويزعم أن مصدرها الحس؛ لانفراد الحس بمصدرية المعرفة^(٣).

(١) ينظر: المعرفة في الإسلام، د. عبد الله القرني (ص: ٢٠٣).

(٢) ينظر: شرح الأصبهانية لابن تيمية (ص: ١١٠)، مفتاح دار السعادة (١ / ٨٦). وللاستزادة في هذا المعنى ينظر: تفسير ابن كثير ت سلامة (٨ / ٤٣٧)، التحرير والتنوير (٣٠ / ٤٤١)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٩ / ٢٥).

(٣) ينظر: نظرية المعرفة لزكي نجيب محمود (ص: ٥٢)، المعرفة في الإسلام، د. عبد الله القرني (ص: ٣٠٦).

أمّا دعواهم انفراد الحسّ بمصدرية المعرفة، فيكفينا لإدراك بطلانها أن أدلة هذه الدعوى نفسها ليست حسّية؛ إذ ادّعاء كون علم الناس كلهم تمّ عن طريق الحسّ كليّ تعميمي لا يحصل إلا بالعقل، فكيف يصحّ القول بأنّ هذه المقدمات مصدرها التجربة، مع أنّ هذه المقدمات لا غنى عنها؛ لكي تكون التجربة ممكنة؟! (١).

وقد استدلوا على انفراد الحسّ بمصدرية المعرفة بأدلة؛ كقولهم: إنّ تحليل الأفكار يُوصَل إلى أنها في الحقيقة أفكارٌ بسيطةٌ، كل فكرة منها صورة لانطباع حسّي (٢)، وقولهم: إنّ تحقّق هذه المبادئ موقوف على القوى الحسّية (٣).

فأما دليلهم الأوّل، فبالرغم من كونه مجرد دعوى لا دليل عليها، فإنّ ثبوت صفتي الضرورة والكلية (٤) لهذه المبادئ

(١) ينظر: المنطق الحديث ومناهج البحث لمحمود قاسم (ص ٥٧)، مصادر المعرفة للزنيدي (ص ٥٢٤ وما بعدها)، إمانويل كانت: لعبد الرحمن بدوي (ص ١٧٥-١٧٧).

(٢) ينظر: ديفد هيوم لزكي نجيب محمود (ص ١٢١).

(٣) ينظر: ديفد هيوم لزكي نجيب محمود (ص ٣٦)، مدخل جديد إلى الفلسفة لعبد الرحمن بدوي (ص ١٦٧).

(٤) المقصود بكلّيتها: أنها عامة لا تختص بموجود عن موجود، بل تعم المشاهد المحسوس وغير المحسوس.

- وهذا ما لا يستطيعون إنكاره - يناقض كونها ناشئة عن التجربة^(١).

وأما قولهم بأنَّ تحققها متوقَّف على القوى الحسّية، فإنَّه لا تناقض بينه وبين القول بفطريّتها؛ لأنَّ معنى فطريّتها وجودها بالقوَّة كما سبق، وأما تحققها المتوقَّف على القوى الحسّية فهو وجودها بالفعل^(٢).

وإن سلّمنا جدلاً أنَّ مصدرَ هذه المبادئ الحسّ، فيلزم أن تكون أموراً احتمالية لا ضرورية؛ ممّا يؤول إلى القول باحتمالية العلوم والمعارف وعدم يقينيّتها، وهو ما التزموه وتوصّلوا إليه بعقولهم المتطوّرة، ولكنها في الحقيقة رجعت بهم إلى عقليات السفسطة اليونانية!! فإنَّ مَنْ شكَّ في العقليات فتشكيكه في الحسيات أسهل^(٣).

فضرّية التسليم بأنَّ مصدرها الحسّ وأنها احتمالية: باهظة الثمن؛ إذ يلزم منه التالي:

(١) المعرفة في الإسلام، د. عبد الله القرني (ص ٣١٣).

(٢) ينظر: المعرفة في الإسلام، د. عبد الله القرني (ص ٣١٤)، وممّن أكّد أن تحقُّقها متوقَّف على الحسّ ابنُ رشد في شرح البرهان لأرسطو (ص ٤١٦)، والرازي في مفاتيح الغيب (٢٠/٩٢).

(٣) ينظر: العقل والوجود ليوסף كرم (ص ١٤٦)، شموع النهار لعبد الله العجيري (ص ٤٣ وما بعدها).

أولاً: انعدام الثقة بالمنهج العلمي التجريبي؛ لعدم الثقة في أدوات الرصد والملاحظة والاستقراء؛ إذ المنهج العلمي معتمد على هذه المقدمات.

فمثلاً: القول بوجود الجاذبية معتمدٌ أولاً على أن سقوط الأشياء إلى الأسفل يدلُّ على وجود جاذبية في الأرض؛ وهذا اعتمادٌ على مقدّمة ضرورية، وهي: أن كل حادث لا بد له من سبب، فإن سلّمنا بأن الحوادث قد تحدث بلا سبب، فلا موثوقية في وجود الجاذبية!

ثانياً: القول بالنسبيّة وعدم إمكانية الوصول إلى حقيقة مطلقة؛ لأنها مبنية على فطريّة المقدمّات، ولو كانت مجرد اكتساب عقلي لكانت مجرد معارف نسبية، ممّا يؤدي إلى إنكار الحقيقة الموضوعية والقول بالنسبية، ولا عجب فقد سبقهم أسلافهم السوفسطائيون إلى ذلك^(١)!

ثالثاً: عدم إمكانية التواصل والإقناع بين البشر؛ إذ هو مبنيٌّ على معارف مشتركة مطلقة ومستندة إلى هذه المقدمات العقلية،

(١) فالسوفسطائيون من أوائل من قال بإنكار الحقيقة المطلقة، ينظر: مناهج البحث عند مفكري الإسلام، د. علي سامي النشار (ص ١٩١)، وتبعهم في ذلك البراجماتيون، ينظر: فلاسفة أيقظوا العالم، د. مصطفى النشار (ص ٧٧)، تطور الفكر الغربي، لمجموعة من الباحثين (ص ٤٢٤)، أعلام الفلسفة الحديثة، د. رفقي زاهر (ص ١٧١).

وبدون وجود هذه المقدمات يظلُّ كلُّ طرف من البشر محبوسًا في إطاره المعرفي الخاص!

ومن جميع ما تقدّم يُعلم أنّ المقدمات الأولية الضرورية فطريّة وعقليّة، وأنّ دليل صحتها هو مجرد تصوّرها، وعدم إمكانية التشكيك فيها، فهي أساس كلِّ استدلال، وهذا ما لا يختلف فيه أحدٌ من البشر.

وفطريّة هذه المقدمات يدلُّ ضرورة على وجود من أوجدها وفطرها، ولا ملجأ لمنكر وجود الله سوى إنكار فطريّتها، ولكنّ المسألة لا تنتهي بذلك، بل يوصلُ في نهاية المطاف إلى السفسطة وانعدام الثقة بالمنهج العلمي التجريبي!

وصلّى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم^(١).



(١) إعداد: عمار بن محمد الأركاني.

الغرائز الفطرية ووجود الله

✽ ما تفسير الغرائز الكامنة في أعوار الكائنات الحية؟

هذا السؤال من أكبر الأسئلة التي حيرت العلماء الماديين، وحين يتأمله ذوو الفطر السليمة فإنه لن يقودهم إلا إلى حقيقة ضرورية يجدها كل إنسان؛ أن الله الذي خلق الخلق أودع في خلقه ما يدل عليه ﷺ، ومنها الغرائز الفطرية، وهي دوافع وميول كامنة في النفس، موجودة منذ الولادة، تدفعها إلى أعمال وسلوكيات تصب في مصالحها.

كالطفل ينساق إلى ارتضاع ثدي أمه، ومصّ اللبن منه كي ينمو ويسدّ جوعه دون تعليم ولا تدريب^(١).

وكيف يعيش الطفل لو كان يحتاج منذ ولادته إلى تعليم لطريقة التقام الثدي وكيفية مصّه وطريقة ازدراد اللبن؟! وبأي الوسائل سنعلمه ذلك؟!!

(١) ينظر: العقيدة الإسلامية وأسسها لـ د. عبد الرحمن حسن حبنكة (ص ٨٩)، شموع النهار للشيخ عبد الله العجيري (ص ٧٢).

ثم ارجع البصر وتأمل في غريزة الأمومة، تلك التي تبدأ بحمل الطفل في أحشائها تسعة أشهر، لا تكثرث أن يؤلمها طفلها بحركاته، ويشاركها في طعامها، ويمنعها من نومها وراحتها، ثم بعد كل ذلك لا تمنع أن تفديه بحياتها حين ولادته؛ إذ تكون بين الحياة والموت، فإن خرج أقبلت عليه بكل قلبها، وأغدقت عليه ينابيع رعايتها وحبها، وأثرته بنفسها حتى يشبَّ، واقرأ عجائب "قصص الأمهات مع أبنائهن:

ابن يطعن أمه فتسعى في الشفاعات ألا يعاقب أو يؤذى!
 وآخر يهجر أمه، فلا تكون لها في الحياة أمنية إلا في الجلوس معه!
 ابن مشلول، وأم عجوز تقوم على شأنه بعد أن بلغت من الكبر عتياً!"^(١).

وليس هذا مقصوراً على الإنسان، بل هي في البهائم أعجب، فتأمل تفاني البطريق في حماية صغيره؛ حيث يظل حامياً لفرخه بين ساقيه طيلة أربعة أشهر دون تناول طعام، بل تعجب من أمومة التماسيح المتوحشة، كيف تدفن بيضها حفاظاً عليه، وعندما يخرج صغارها تضعهم في فمها حتى يشتد عودهم، ثم إذا واجه الصغير أية خطورة كان فم أمه الملاذ الآمن، ثم انظر إلى أنثى اللبان كيف يتوجب عليها أن تأكل جيداً لترضع صغارها،

(١) شموع النهار للشيخ عبد الله العجيري (ص ٧٣).

وفي ذات الوقت الذي ينمو فيه صغيرها يتقلص حجمها هي ولا تمناع!^(١)

لا أدري كيف تنتظم الحياة إن لم توجد غريزة الأمومة هذه!!

والغرائز كثيرة يطول بنا المقام إن أردنا استقصاءها، ولعلنا نعرّج هنا إلى ما ذكره القرآن، ألا وهي مملكة النحل وغرائزها؛ كتعاونهم وتكاتفهم على العمل والإنجاز، وانضباطهم في العمل المؤسسي، وتصميمهم العجيب للخلية الذي يسبق تصاميم خبراء الهندسة والرياضيات، وتفانيهم في حماية الخلية بحراستها وطرد كل من يحاول اختراقها ثم وقايتها من التعفن^(٢).

ومن الغرائز البشرية التي لا يحسن إغفالها غريزة التدين.

(١) ينظر: الأفلام الوثائقية في كل ذلك، وهي موجودة على الشبكة.

(٢) وقد أخبرنا الله ﷻ عن هذا بقوله: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الشَّرَاةِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [النحل: ٦٨، ٦٩]، وللإستزادة ينظر: مقال من عجائب المخلوقات القرآن وأمة النحل على شبكة الألوكة:

<http://www.alukah.net/culture/0/71891>

وشاهد أيضا وثائقي كيف يصنع النحل العسل؟

<https://www.youtube.com/watch?v=DKBCUQ5DjsE>

فإن الإنسان يجد من نفسه افتقاراً إلى من يعبده ويخضع له، ويتلهف إلى معونته ومدده ويبتهل إليه، كما شهد به المؤرخ الإغريقي بلوتارك بقوله: "لقد وجدنا في التاريخ مدناً بلا مدارس، ووجدنا في التاريخ مدناً بلا حصون، ووجدنا في التاريخ مدناً بلا مستشفيات، ولكن ما وجدنا في التاريخ مدناً بلا معابد"^(١).

وتنجلي هذه الغريزة إذا ادلهمت الخطوب على الإنسان، وانقطع أمله من أمثاله من المخلوقات، فيتوجه ضرورة إلى الخالق، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَكُمْ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوْا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [يونس: ٢٢] ^(٢).

وإذا كان الإنسان لا بد له من دين، والإله أهم أركان التدين، دَلَّ ذلك على ضرورة وجود الله ﷻ.

فهذه بعض الغرائز، وغيرها كثير لا يكاد يخلو حيوان منها^(٣)،

(١) ولذا تجد في تاريخ البشر تنوعاً هائلاً في أنواع المعبودات، حتى إن بعضهم يعبد الحجر والبقر والجرذان!

(٢) والدراسات الغربية الحديثة تعترف بهذا ولكن بلغة أخرى، فهناك كثير من الدراسات التي تجرى على هذه الغريزة حتى صار يُبحث عن جين موجود في نفس الإنسان مسؤول عن التدين!! ينظر: شموع النهار للشیخ عبد الله العجيري (ص ٣٢).

(٣) كغريزة التناسل، وميل كل من الجنسين إلى الآخر، وطلب العيش، وحب البقاء، وحب الكمال والجمال، وحب الولد، ومما لوحظ من الغرائز على البهائم خاصة: بناء المسكن، والدفاع عن النفس وتدابير الحذر من المخاطر، والهجرة الجماعية المنظمة، وغيرها من الغرائز الفطرية.

فكيف نفسر وجود هذه الغرائز؟ من أودعها وأوجدها؟
 قد أجاب القرآن عن هذا حين سأل فرعون -المتظاهر بإنكار
 الخالق- عن الإله الذي يستحق أن يعبد، فردَّ عليه ﷺ بهذه
 المسألة الظاهرة التي لا يملك إنكارها، فقال: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ
 خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه:٥٠]، "فهدى كل مخلوق إلى ما خلقه له، وهذه
 الهداية العامة المشاهدة في جميع المخلوقات، فكل مخلوق تجده
 يسعى لما خلق له من المنافع، وفي دفع المضار عنه... وهذا كقوله
 تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ [السجدة:٧]... ولهذا لما لم
 يكن لفرعون أن يعاند هذا الدليل القاطع عدل إلى المشاغبة،
 وحاد عن المقصود فقال لموسى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾
 [طه:٥١]"^(١).

وكما عجز فرعون عن الإجابة عن تفسير هذه الغرائز، فلا
 زالت هذه المسألة مؤرقة ومرهقة لأمثاله من المنكرين لوجود
 الخالق ﷺ، يقول (جوردن تايلر) أحد دعاة نظرية التطور: "لو
 تساءلنا عن كيفية ظهور أول سلوك غريزي، وعن كيفية توارث
 هذا السلوك الغريزي لما وجدنا أية إجابة"^(٢).

(١) تفسير السعدي (ص ٥٠٧).

(٢) نقلا عن: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، مقال: الغريزة ونظرية

ولا غرابة فقد اعترف كبيرهم داروين أن الغرائز من أكبر الأدلة المبطلّة لنظريته بقوله: "الكثير من الغرائز بديعة إلى درجة أنه من المحتمل أن نشأتها سوف تُظهر للقارئ صعوبة كافية للإطاحة بنظريتي بالكامل"^(١).

ولكن بعض الملحدين المكابرين فسرها تفسيراً مادياً، وادعى أنها راجعة إلى الجين الأناني^(٢)، ويقصد بذلك أن هناك جيناً في الأحياء يريد أن يستأثر بالبقاء! ويدفع إلى السلوكيات التي تؤدي إلى ذلك، فتعرض الكائنات الحية لنفسها للخطر لتحيا صغارها ليس تضحية وتفانيا من أجلهم، وإنما ذلك بسبب ضغط الجين الأناني!

ويكفي لردّ هذا القول أن نقول: إنه مجرد مصادرة لا دليل عليها.

ولو سلمنا جدلاً برأيه، فمن أوجد هذا الجين نفسه إذن؟! ثم من علم هذه الجينات الصمّاء أن تدفع إلى مثل هذا السلوك وهي غير قادرة على التفكير، فاقدة للذكاء والعقل؟!!

(١) أصل الأنواع لشارلز داروين، ترجمة: مجدي المليجي (ص ٣٩٤).

(٢) ومن أشهر من ادعاها داعية الإلحاد الشهير وعالم الأحياء الأمريكي (ريتشارد دوكنز) في كتابه الذي سماه (الجين الأناني).

ولكن ما عبّر عنه في الحقيقة هو أحد الغرائز الفطرية في الحيوانات، وهي غريزة الحفاظ على النسل، التي تُعتبر منّة من الله للحفاظ على الحياة.

ومن محاولات منظري التطورية لتفسير هذه الغرائز دعوى أنها تنتقل مع عملية التطور لمصلحة إبقاء الكائن الحي! وهذه مكابرة ومناقضة لما أكّده داروين أصلاً من قبل، ثم هي دعوى غير مقبولة علمياً بحسب (جوردن تايلر)؛ لأنها وإن قبلتها بعض الكائنات لكن لا يمكن تعميمها؛ فعاملات النحل والنمل مثلاً عقيمت، فكيف تتم عملية الانتقال مع أن غرائزها تتطلب عقلاً وذكاءً بارعاً؟! وكذلك بناء الطيور لأعشاشها، وإنشاء القندس للسدود، يقتضي وجود نوع من الأنماط السلوكية المعقّدة؛ كالتصميم والتخطيط للمستقبل، ولا يتلاءم طبيعة جهازها العصبي مع ذلك^(١).

وإن سلمنا جدلاً بقولهم، فإننا لا نرى الغرائز تتطور مع تطور البناء الحيوي^(٢).

(١) سر التطور العظيم لجوردن تايلر (ص ٢٢٢)، نقلاً عن: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، مقال: الغريزة ونظرية التطور:

<http://quran-m.com/quran/printarticles/2170>

(٢) كما استشكله داروين نفسه في كتابه أصل الأنواع، ينظر: (ص ٩٨).

وعلى سبيل المثال: السمكة تضع بيضها تحت أحجار قاع البحر، فكيف تتطور هذه الغريزة لتصبح السمكة حيواناً برياً تقوده غريزته إلى بناء أعشاش خاصة على أطراف الأشجار^{(١)؟!}

ثم وإن صحّت هذه النظرية، فسيبقى السؤال قائماً: من أنشأها أول مرة؟^(٢).

إذن، هذه الغرائز الفطرية الباهرة المتوائمة مع نظام الكون لا يمكن أن تنشأ من تلقاء نفسها، فلو رأيت جهازاً بشرياً صنع على أحدث التصاميم وبأدق القياسات وأحسن الميزات، هل لك أن تصدق أو تتخيل أنها نشأت من نفسها، أو وُجدت صدفة، أو لا مصمم لها.

هيهات^{(٣)!}

(١) فهذا مناقض لزعم التطوريين الذين يزعمون أن الطيور نشأت من الزواحف وهي نشأت من الأسماك.

(٢) ينظر: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، مقال: الغريزة ونظرية التطور: <http://quran-m.com/quran/printarticles/2170>

وشموع النهار للشيخ عبد الله العجيري (ص ٧٢).

(٣) إعداد: عمار بن محمد الأركاني.



الْمُتَكَلِّمُونَ

وفطرية معرفة الله

لا خلاف بين المسلمين في أنّ كل مسائل الاعتقاد مبناها الإقرار بوجود الله ﷻ، ولكنّ الخلاف في الوسيلة الموصلة إلى هذه النتيجة، هل هي فطرية أم نظرية؟

فأما أهل السنة فإنّ معرفة الله تعالى عندهم فطريةً بديهيةً ضروريةً لا تحتاج إلى نظر واستدلال^(١)، إلا أن العقل والنظر مساندٌ لهذه الغريزة؛ "لينال المؤمن بذلك زيادة اليقين وتلج الصدر"^(٢).

وهذا من حيث الأصل، إلا أنه قد يعرّض للإنسان ما يحتاج معه إلى النظر والاستدلال العقلي؛ لإيقاظ هذا المعنى الفطري الكامن في النفس^(٣)، فسبُل معرفة الله تعالى ليست محصورةً في الفطرة وحدها، بل الأدلة الدالة على وجوده ﷻ كثيرة متنوعة^(٤).

(١) ينظر: بيان تلبيس الجهمية (٤/ ٥٧٠).

(٢) الانتصار لأهل الحديث (ص ٦٠).

(٣) ينظر: درء تعارض العقل والنقل (٣/ ٣٠٣).

(٤) ينظر: درء تعارض العقل والنقل (٣/ ٣٠٣).

وأما المتكلمون فقد أنكروا دلالة الفطرة، وضيّقوا على أنفسهم، وجعلوا السبيلَ الوحيدَ للإقرار بوجود الخالق هو العقلُ كما قال القاضي عبد الجبار المعتزلي: "إن سأل سائل فقال: ما أول ما أوجب الله عليك؟ فقل: النظرُ المؤدّي إلى معرفة الله تعالى؛ لأنه تعالى لا يُعرَفُ ضرورة ولا بالمشاهدة، فيجب أن نعرفه بالتفكّر والنّظر"^(١)، وقال الباقلاني وهو يقرّر ذلك: "وأن يُعلم أن أول ما فرض الله ﷻ على جميع العباد النظرُ في آياته...؛ لأنه سبحانه غير معلوم باضطرار... وإنما يُعلم وجوده وكونه على ما تقتضيه أفعاله بالأدلة القاهرة، والبراهين الباهرة"^(٢).

وهذا الأمر أدّى بهم إلى انحرافات عقديّة أخرى؛ كمسألة أول واجب على المكلف، هل هو النظر، أو القصد إليه، أو الشك؟.. إلخ^(٣).

(١) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار (ص ٣٩).

(٢) الإنصاف للقاضي الباقلاني (ص ٢٢)، وليس هذا قول بعضهم بل هو قول عامة المتكلمين، ينظر: الإرشاد لإمام الحرمين الجويني (ص ٣)، المواقف للإيجي (ص ٣٢).

(٣) ينظر: مجموع الفتاوى (١٦/ ٨٣٣)، درء تعارض العقل والنقل (٣/ ٣٣٣)، فتح الباري لابن حجر (١/ ٧٠).

وأيضاً مسألة حكم إيمان المقلد^(١)، وغيرها من المسائل العقدية التي زلت فيها أقدام أهل الكلام؛ بسبب حصرهم معرفة الله تعالى في الدليل العقلي.

ولن نطيل الحديث في هذه المسائل وإبطالها؛ إذ بيان بطلان أصل المسألة تبطل الفروع كما فعل ابن حجر^(٢).

فإن ما ذكرنا من أن أدلة معرفة الله ﷻ ليست محصورة في العقل قول عليه الكثير من الأدلة، ومنها دليل الفطرة الذي نحن بصدد الحديث عنه، حيث إنها وردت في كثير من نصوص الكتاب والسنة، ومن ذلك:

١. أمر الله ﷻ صراحةً بلزوم هذه الفطرة التي فطرنا عليها من معرفته وتوحيده بصيغة الحث والترغيب^(٣)، حيث قال تعالى:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لَـ

(١) ينظر: شرح الكبرى للسنوسي (ص ٣٩)، شرح الجوهرة للبيجوري (ص ٣٢) وما بعدها.

(٢) قال رحمه الله بعد أن ذكر هذه المسائل: "ومع ذلك فقول الله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الرؤم: ٣٠] وحديث: «كل مولود يولد على الفطرة» ظاهران في دفع هذه المسألة من أصلها". فتح الباري لابن حجر (١/ ٧٠).

(٣) ينظر: تفسير البغوي (٦/ ٢٦٩).

لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴿ [الروم: ٣٠] أي: فسد وجهك واستمر على الذي شرعه الله لك من الحنيفة ملة إبراهيم، الذي هداك الله لها وكملها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها؛ فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده، وأنه لا إله غيره^(١).

٢. إخبار الله ﷻ صراحة بأنه جعل في خلقنا وفطرتنا هذه المعاني وأشهدنا عليها^(٢)، حيث قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿ [الأعراف: ١٧٢].

فهذه الآية مع اختلاف مفسري أهل السنة، بين من جعلها قصة حقيقية واقعية، ذاهباً إلى أن الإشهاد كان حقيقةً في عالم الذر، وبين قائل: إنها كناية عن خلقهم على هيئة يقرون معها بالله ﷻ، إلا أنهم يتفقون على أن معرفة الله ﷻ فطرية^(٣).

(١) ينظر: تفسير ابن كثير سلامة (٦/ ٣١٣).

(٢) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٣/ ٤١).

(٣) ينظر: فتح القدير للشوكاني (٢/ ٢٩٩) وقد أورد الأحاديث والآثار الواردة في ذلك ومن أهمها الحديث الوارد أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ الآية [الأعراف: ١٧٢] فقال: سمعت رسول الله ﷺ يسأل عنها فقال: «إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للجنة ويعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية، =

ومع إيماننا بأن الله ﷻ أخذ الميثاق من بني آدم على الحقيقة، فإنه لا يلزم من هذا بطلان القول بأن الإنسان يولد على الإيمان بوجود الله ﷻ، بل هو مولود على الإيمان به، والدليل على هذا قوله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، وينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء». ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: ﴿فَطَرَتَ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لَهَا لِيَخْلُقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ الدِّينَ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]^(١).

قال ابن حجر: "وأشهر الأقوال أن المراد بالفطرة الإسلام"^(٢)، ثم نقل عن ابن عبد البر قوله في التمهيد:

فقال: خلقت هؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون»، فقال رجل: يا رسول الله، ففيم العمل؟! فقال: «إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار»، والحديث أخرجه أبو داود (٤٧٠٣)، والترمذي (٣٠٧٧)، وابن حبان (٦١٦٦)، والضياء في المختارة (٢٦٢). وللإستزادة في معنى الآية والأقوال ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٣ / ٢٩٠)، تفسير البغوي، ط طيبة (٣ / ٣٠٠).

(١) متفق عليه، صحيح البخاري (١٣٥٩)، ومسلم (٦٩٢٦).

(٢) فتح الباري لابن حجر (٣ / ٢٤٨).

"وهو المعروف عند عامة السلف، وأجمع أهل العلم بالتأويل على أن المراد بقوله تعالى: ﴿فَطَرَتَ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] الإسلام"^(١)، فالإنسان يولد على نوع من الجبلية والطبع المتهى لقبول الدين^(٢)، وأهم مقولات الدين: إثبات وجود الله ﷻ، وهذا المعنى متوافق مع اللغة أيضا^(٣).

ومما يؤكد صحة القول بأن الإنسان يولد على الإيمان بوجود الله ﷻ قول النبي ﷺ: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم، مما علمني يومي هذا، كل مال نحلته عبداً حلال،

(١) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (١٨ / ٧٢) ثم بين حججهم فقال: "واحتجوا بقول أبي هريرة في آخر حديث الباب: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَطَرَتَ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾، وبحديث عياض بن حمار اللاحق لهذا الحديث في الأصل، ورجحه بعض المتأخرين بقوله تعالى: ﴿فَطَرَتَ اللَّهُ﴾ لأنها إضافة مدح، وقد أمر نبيه بلزومها، فعلم أنها الإسلام، وقال ابن جرير: قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ أي: سدد لطاعته ﴿حَنِيفًا﴾ أي: مستقيماً ﴿فَطَرَتَ اللَّهُ﴾ أي: صبغة الله".

(٢) في تعريف الفطرة أقوال للعلماء، وما ذكرته هو مذهب عامة السلف وعامة أهل التأويل في تفسير آية الروم، ينظر: شرح النووي على مسلم (١٦ / ٢٠٨)، درء تعارض العقل والنقل (٣ / ٣٠٣)، شفاء العليل (ص ٤٧٨)، فتح الباري لابن حجر (٣ / ٢٤٨).

(٣) ينظر: لسان العرب: مادة "فطر" (٥ / ٥٥ - ٥٦)، تاج العروس (١٣ / ٣٢٥) - (٣٢٦)، ابن فارس (٤ / ٥١٠).

وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا...»^(١)، "فالحنيفية الإسلام"^(٢)، "والحنيف في كلام العرب المستقيم المخلص، ولا استقامة أكثر من الإسلام"^(٣)، فإن كانت الفطرة دالة على الإسلام فدلالتها على وجود مشرّع الإسلام من باب أولى.

٣. أسلوب تعامل الوحي مع المعترضين على هذه الفطرة:

يعتبر فرعون من أشهر من أنكر وجود الله ﷻ، وإذا ما تأملنا منهج الوحي في إبطال ما ذهب إليه، وجدنا أن النصوص تذكره بما هو مركز في فطرته، قال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ﴾ [طه: ٤٤]. فأيات القرآن تشير إلى أن فرعون كان مولوداً على الإيمان بوجوده ﷻ، ثم حصل منه الجحود والغفلة عن هذا العلم؛ ولذا كان القول اللين من دواعي تذكر فرعون لما في فطرته من العلم الذي به يعرف ربه^(٤).

(١) أخرجه مسلم برقم (٧٣٨٦).

(٢) ينظر: شرح النووي على مسلم (١٧ / ١٩٧).

(٣) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (ص: ٢٨٦).

(٤) ينظر: مجموع الفتاوى (١٦ / ٣٣٨).

وكذلك كان جواب القرآن على قول الأمم الذين قالوا: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم: ٩] فكان الردُّ ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]، وهذا يحتمل شيئين:

أحدهما: أفي وجوده ﷻ شك؟! فإن الفطر شاهدة بوجوده، ومجبولة على الإقرار به؛ وعلى هذا فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة.

والثاني: أفي إلهيته وتفرده بوجوب العبادة شك؟! ولا يستحق العبادة إلا هو، وحده لا شريك له؛ فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع^(١).

فالفطرة دالة على وجوده ﷻ، وأما من اجتالته الشياطين، وانصرف عن هذا، وشكَّ في هذه الفطرة، نُبِّه بالأدلة العقلية، ودُعي إلى التفكُّر في شواهد الكون الدالة عليه ﷻ؛ لعل غريزته تستيقظ ويعود إلى الإيمان بوجوده ﷻ^(٢).

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ت سلامة (٤/ ٤٨٢).

(٢) ينظر: درء التعارض لابن تيمية (٣/ ٣١٠)، مجموع الفتاوى (١٦/ ٣٣٤)، الانتصار لأهل الحديث (ص ٦٠).

ومع ما قَرَّرنا من أن مذهب المتكلمين إنكار فطرية معرفة الله ﷻ،
فإن من الإنصاف أن نبين أن من المتكلمين من أثبت ذلك؛
كالشهرستاني والغزالي مثلاً^(١).

هذا وقد تبين لنا أن الحق الذي أثبته الوحي وعليه أهل السنة
والجماعة أن الله ﷻ فطر خلقه على معرفته وأمر بلزوم تلك
الفطرة، ولكن قد يعرض لها ما تحتاج معه للنظر العقلي.
ولا يلتفت إلى من أنكر هذه الفطرة بعد أن أثبتها القرآن
والسنة الصحيحة^(٢).



(١) أثبت الغزالي ذلك في كتابه إحياء علوم الدين (١/ ٨٦) إلا أن له كلاماً يناقضه
في كتابه المتقذ من الضلال (ص: ١٨١)، وللاستزادة ينظر: نظرية المعرفة عند
الغزالي بقلم د. عبد الله حسن رزق:

[http://almuslimuuser.org/index.php?option=com_k2&vi
ew=item&id=310:nazariat-el-ma3refa](http://almuslimuuser.org/index.php?option=com_k2&view=item&id=310:nazariat-el-ma3refa)

وأما الشهرستاني فقد صرح بذلك في كتابه نهاية الإقدام (ص: ١١٨) في القاعدة
الخامسة.

(٢) إعداد: عمار بن محمد الأركاني.

دليل الإبداع والاختراع

وجولة مع الملحدين

يعتبر دليل الاختراع^(١) باكورة أدلة وجود الله تعالى، بل أقواها وأظهرها وأوسعها انتشارًا على مر التاريخ.

وخلاصته: أننا نرى الأشياء من حولنا كالسحاب والنبات والحيوانات وغيرها، تحدث بعد عدم تباعًا، بل الإنسان نفسه يعلم أنه حدث بعد أن لم يكن^(٢).

(١) سُمِّيَ بهذا الاسم التفاتًا إلى قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]، فالخلق هنا بمعنى الإبداع والاختراع، وممن سمَّاه هذا الاسم ابن رشد الحفيد في كتابه الكشف عن مناهج الأدلة (ص ١١٩)، ومن أسمائه أيضا: دليل الخلق والإيجاد، ودليل الملك، ودليل الحدوث، والمحرك الأول، والدليل الكلامي، والدليل (الكوزمولوجي) = الكوني، وغيرها من الألقاب والأسماء، ينظر: شموع النهار للشيخ عبدالله العجيري (ص ٩٥).

(٢) الصحيح الثابت بنصوص القرآن أنَّ ثبوت حدوث بعض أجزاء الكون كافٍ لإثبات حدوث العالم، وذلك مدرك بالضرورة الحسية؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَذَّكَّرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ [مریم: ٦٧]، =

فهذا أمر معلوم بالضرورة الحسية^(١).

= فالإنسان يعلم من نفسه ضرورةً أنه حادث، وُجد بعد أن لم يكن، وأن الفناء مصيره لا محالة، وإثبات حدوثه كافٍ في إثبات حدوث العالم؛ قياساً للغائب على الشاهد، ولعدم وجود المعارض الحقيقي لهذا الأمر خلافاً للرأي المتكلمين الذين حاولوا إثبات حدوث كل أجزاء الكون، فوقعوا في أغلاط وتناقضات واضطرابات كثيرة، وقد قرر هذا كثير من العلماء؛ كابن حزم في الفصل في الملل والأهواء والنحل (١/٦٣)، وكذلك ابن رشد الحفيد في الكشف عن مناهج الأدلة (ص ١١٩)، وأيضاً ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ الذي أطال الحديث فيه. ينظر: مسألة حدوث العالم لابن تيمية (ص ١٦٣-١٧١)، منهاج السنة لابن تيمية (٢/٢٧٢-٢٨٢)، الصفدية لابن تيمية (١/٢٠-٢٢)، المعرفة في الإسلام لـد. عبد الله القرني (ص ٥٠٧).

(١) وحوادث الكون مع كونه من أظهر المعارف الضرورية، فقد كان في العصر الحاضر من يدّعي قدم العالم، يقول (ستيفن هوكنج) في كتابه تاريخ موجز للزمان (ص ٥٢): "ثمة أناس كثيرون لا يحبذون فكرة أن الزمان له بداية، وربما كان ذلك لأن فيه مجالاً للتدخل الميتافيزيقي، وهكذا كان هناك عدد من المحاولات لتجنب استنتاج أنه كان ثمة انفجار كبير".

غير أنها اليوم أضحّت مسألةً مسلّمةً لا نزاع فيها عند أرباب العلم التجريبي، وأعرض الملحّدون المعاصرون عن المعارضة بها، كما قرره كثير منهم مثل: (برتراند رسل) و(ستيفن هوكنج) إذ يقول في كتابه تاريخ موجز للزمان (ص ٧): "ومع تراكم الدليل التجريبي والنظري أصبح من الواضح أكثر وأكثر أن الكون لا بد له من بداية في الزمان، حتى تمت البرهنة على ذلك نهائياً في ١٩٧٠م"، وكان لقانون الديناميكا الثاني ونظرية الانفجار العظيم أعظم الأثر في اعتناق هذا القول.

=

وهنا يتساءل العقل: من الذي اخترعها وأحدثها بعد العدم؟ هل وُجد من العدم المحض؟ بالطبع لا؛ لأن العدم ليس بشيء حتى يوجد شيئاً^(١).

هل أوجد هو نفسه بنفسه؟ هذا أيضاً باطل، فإن الإنسان وهو في أحسن مراحل الفتوة لا يمكنه استحداث شيء في نفسه، فكيف وهو معدوم!^(٢)

= ينظر: نظرة علمية لـ(برتراند رسل) (ص ١٠٧-١٠٩)، الله يتجلى في عصر العلم لمجموعة من الباحثين (ص ١٢)، وأيضاً (ص ٩١)، والإسلام يتحدى لوحيد الدين خان (ص ٥٥).

(١) وعجباً لبعض الملحدين يتمسكون بدعوى تناقض عقولهم وفطرتهم من أن هذه المخلوقات يمكن أن تنشأ من العدم؛ كدعوى الملحدين (لورانس كراوس) الذي يدعي أن الفيزياء الحديثة يمكن أن تدلنا على كيفية نشوء الكون من لا شيء، مع أن هذه الدعوى ما زالت مجرد فرضية يطلها الفيزيائيون أنفسهم ويختلفون فيها اختلافاً شديداً، وحقيقة دعواهم أنه يمكن أن ينشأ الكون من فراغ كمي يمتد بالنشاط والطاقة، تظهر فيه الجسيمات الدقيقة وتختفي.

إذن ليس المقصود وجود الكون من العدم المحض وإنما من جسيمات دقيقة ونحوها. ويكفي في ردها أنها ما زالت مجرد فرضية لا دليل علمي عليها، وعلى فرض صحتها، نتساءل عن أحدث هذه القوانين؟ وهذه الجسيمات من العدم؟ فالسؤال لا يزال قائماً. ينظر: شموع النهار للشيخ عبد الله العجيري (ص ١٤٧).

(٢) ينظر: الصواعق المرسله لابن القيم (٢/٤٩٤).

إذا بطل هذان، فالاحتمال الثالث والأخير هو أنه أوجده غيره، وهذا هو الممكن عقلاً والمقبول فطرةً. ولكن هذا الذي أوجده؛ إما أن يكون حادثاً مثله، أو واجب الوجود بنفسه.

فإن كان حادثاً فيحتاج إلى من أحدثه، حتى تنتهي المخلوقات الحادثة إلى مُحدثٍ وجوده من نفسه غير مسبوق بعدم ولا يلحقه الفناء^(١)، وهذا هو الله ﷻ الذي وصف نفسه بقوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]^(٢).

(١) ولو استمررنا في افتراض ذلك بحيث يكون لكل فاعل فاعل، وهكذا إلى ما لا نهاية، فإنه يؤدي إلى عدم حدوث شيء في الواقع، وهو ممتنع؛ وتوضيح ذلك: لو افترضنا أن مجرمًا حكم عليه بالقتل، فقال الجندي: لا يمكن أن أضرب عنقه حتى يأمرني من هو أعلى مني رتبة، وقال من فوقه: لا أفعل ذلك حتى يأمرني من هو أعلى مني رتبة، فإما أن تنتهي إلى قائد يأمر بالقتل وإلا لم يقع الفعل، وهذه المسألة هي التي تسمى عند أهل العلم بالتسلسل في الفاعلين المؤثرين، ولتوضيح أكثر شاهد:

<https://www.youtube.com/watch?v=e99e1lgavJs>

ينظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٣/١٤٩)، وبعض الملحدين لا يستوعب هذا المعنى، فيورد سؤالاً ساذجاً وهو (فمن خلق الله) ولعلنا نناقشه في مقال لاحق بإذن الله تعالى.

(٢) ونحن لا ندعي أننا نعرف كنه ذات الله وحقيقته بمجرد حدوث الكون، وإنما ضرورة وجود الله تعالى وبعض كمالاته سبحانه وعدم التفريق بين هاتين النقطتين كان أحد أهم الدوافع لإنكار (كانت) إمكانية الاستدلال بمبدأ السببية على الغيبيات؛ لأن العقل لا يتجاوز معطيات الحس بزعمه، =

ويمكننا تلخيص هذا الدليل بالطريقة المنطقية المشهورة

بقولنا:

(العالم حادث + الحادث لا بد له من مُحدث وجوده من

نفسه = الله هو المتصف بذلك سبحانه، فالله موجود)

ورَبُّنَا عَلَّمَ قَدْ لَخَّصَهُ بِأَوْجَزٍ مِنْ هَذَا بِقَوْلِهِ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ

أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥] ^(١).

وهذا الدليل مع كونه من أقوى الأدلة العقلية، هو في ذات

الوقت من أيسر الأدلة وأقربها إلى الفطر السّوية؛ بحيث يستوعبه

المبتدئ قبل المنتهي، والعالم والعامي؛ لأنه يعتمد على مبدأ

السببية، وهو مبدأ عقلي عميق الغور في النفس البشرية ^(٢).

وحين نتأمل مناقشات رب العالمين ﷺ لمنكري وجوده نجد

هذا الدليل حاضرًا ومركزيًا فيها، فحين أنكر فرعون وجود

= إضافة إلى قياسه الوجود الذهني بالوجود الخارجي، ينظر: شموع النهار

للشيخ عبد الله العجيري (ص ٩١)، ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث

لـ د. سلطان العميري (٢/ ١٦٣).

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٤٣٧)، أضواء البيان للشنقيطي (٣/ ٤٩٤)، وانظر

أيضا: الرد على المنطقيين لابن تيمية (ص ٢٥٣)، مجموع الفتاوى لابن تيمية

(١١/ ٢).

(٢) ومبدأ السببية أحد المقدمات العقلية الضرورية، وقد سبق الحديث عنها

ومناقشة منكريها، ينظر مقال: دلالة المقدمات الأولية على وجود الله:

الله تعالى بقوله: ﴿وَمَارَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٣) [الشعراء: ٢٣]، كان الجواب: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤]، فاحتج على استنكاره بأنه أعرف من أن ينكر، وأظهر من أن يشك فيه، فكل مخلوق حادث يدل على محدثه ﷺ (١).

وتأمل قصة النمرود الذي اغتر بملكه، فجدد ربه ﷺ، فاستدل عليه إبراهيم عليه السلام بأن حدوث المحدثات دال على محدثها سبحانه بقوله: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فكابر هذه الحجة وزعم أنه هو المدبر والمتصرف، فقال: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فطلب منه إبراهيم عليه السلام إحداث وتصريف أمر أظهر من الإحياء، فقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وأخسر فلم يحر جواباً (٢).

وغالب نصوص الخلق في القرآن تدور حول معنى هذا الدليل (٣).

(١) ينظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٦/ ٣٣٤).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٦٨٦).

(٣) وتلك النصوص في الغالب تستدل بالخلق على مسألة أعظم من مسألة وجود الله، وهو استحقاؤه سبحانه للعبادة وحده لا شريك له، وتأمل قول الله تعالى:

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، وقوله: ﴿إِشْرُكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١]، وقوله: ﴿إِنَّكَ الَّذِي تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣].

ولسهولة هذا الدليل وقوته واهتمام القرآن به؛ تبوأ محل الصدارة بين أوساط المؤمنين، فهو من أكثر الأدلة انتشاراً، وعامة المسلمين يحتجون به فضلاً عن العلماء.

ومما يحكى أن أعرابياً من المسلمين سئل عن وجود الرب تعالى؟ فقال: يا سبحان الله!! إن البعرة لتدل على البعير، وإن أثر الأقدام لتدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج؟ ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير؟^(١).

ويروى عن أبي حنيفة أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود الباري تعالى، فقال لهم: دعوني فإني مفكر في أمر قد أخبرت عنه ذكروا لي أن سفينة في البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها، وهي مع ذلك تذهب وتجيء وتسير بنفسها وتخرق الأمواج العظام حتى تتخلص منها، وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد، فقالوا: هذا شيء لا يقوله عاقل، فقال: ويحكم، هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع!! فبُهِت القوم ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه!!^(٢).

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٩٧).

(٢) ينظر: شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي، ت: الأرنبوط (١/ ٣٥)، وقد ذكرها أيضاً الإمام ابن كثير، ثم أورد استدلال كثير من علماء المسلمين بها على تنوع أماكنهم واختلاف عصورهم، ينظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٩٧ - ١٩٨).

وسئل أبو نواس عن ذلك فأنشد:

تأمل في نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك
 عيون من لجين شاخصات بأحداق هي الذهب السبيك
 على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك^(١)

وهكذا تبين لنا أن الإيمان بوجود الله هي النتيجة العلمية المستخلصة من معطيات المبادئ العقلية الضرورية والمشاهدة الحسية لحدوث الكون، فالمؤمنون يعتمدون على فطرهم السويّة وعقولهم السليمة لإثبات وجود الله، وليس اعتمادهم على مجرد ملء الفراغ العلمي أو الاستدلال بالمجهول أو مجرد العاطفة أو الحدس أو المنفعة أو عدم الدليل المعارض كما يزعم ذلك كثير من الملحدين^{(٢)(٣)}.

(١) أورده أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي في كتابه (أحسن ما سمعت) (ص: ١٠).

(٢) والأدهى والأمر أنه وجد في الفكر الغربي من يؤمن بوجود الله ﷻ، ويدعي أنها ليست مسألة عقلية بحيث يمكن الاستدلال عليها بالعقل، ومن أشهرهم: (كانت) و(جون لوك) و(برجسون) و(باسكال) وممن تأثر بهم من العرب (زكي نجيب محمود)، ينظر: ظاهرة نقد الدين في الفكر الحدائثي الغربي لـد. سلطان العميري (ص ٣١ وما بعدها).

(٣) إعداد: عمار بن محمد الأركاني.



الإتقان والإحكام ووجودُ الله تعالى (١)

هل حدّثتك نفسك أن تتفكّر يوماً في العمليات المعقدة التي تُؤدّيها -أخي القارئ- وأنت تقرأ كلماتي هذه؟
قبل أن نستعرض حيرة صاحب نظرية التطور نفسه (داروين) أمام تلك العمليات، دعنا نتباحث حول احتياجات محاكاة هذه العملية بالتقنيات الحديثة؟
بادئ ذي بدءٍ نحتاج إلى (كاميرا) عالية المواصفات؛ يمكنها التمييز بين الألوان؛ لإدخال صورة الحرف، ولا بد من اختيار المكان المناسب للكاميرا؛ لتكون واضحة مقروءة.
ولعلنا نتنبه إلى أن عملية التصوير بالكاميرا ليست مجرد ضغطة زر كما يبدو، بل هي الأخرى تحتاج إلى خبرة وعمليات معقدة (٢).

(١) وإلى هذا المعنى أشار ﷺ بقوله: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، ومن أسمائه: دليل العناية ودليل الرعاية ودليل التدبير ودليل التخصيص ودليل التسوية ودليل الهداية ودليل النظام ودليل الغاية ودليل التصميم وهذا الاسم الأخير أكثر استعمالاً عند المشتغلين بالعلم التجريبي. ينظر: شموع النهار للشيخ عبد الله العجيري (ص ١٧٢).

(٢) أقصد بها عمليات إعداد الكاميرا للتصوير التي يعرفها خبراء التصوير؛ مثل: تحديد المجال "SCOPE"، وتحديد بؤرة التركيز "FOCUS"، وتركيز العدسة على المشهد أو ما يسمى عمق المشهد "DEPTH OF FIELD"، =

ثم نحتاج إلى آلة للتعرف على الحروف المكتوبة ليترجم لنا عن المقصود بها، وكذلك آلة إرسال دقيقة لنقل هذه الصورة من الكاميرا إلى (جهاز التعرف على الحروف المكتوبة).

وفي كل تلك المراحل نحتاج إلى جهاز التخزين المؤقت لهذه المعلومات، ثم جهاز التخزين الدائم الذي به تحفظ العمل النهائي، ولا تنس أيضا الطاقة التي ستفعل لنا كل هذه الأجهزة.

كل تلك العمليات تحدث في ثانية، بل في قدر لا يُذكر من الثانية من حيث لا تشعر وأنت تقرأ.

لعلك دُهشت مما سبق مع بساطة الأمر، ولكنني أدعوك لإبقاء الدهشة لما سيأتي، فالمسألة عميقة الغور وليست بهذه السذاجة، ولنقترب بالعدسة قليلا من أحد الأجهزة البشرية التي نستخدمها وهي العين حتى نعرف عجائبها ومكوناتها.

تبدو العين وكأنها عضو صغير سهل التركيب، إلا أنها في الحقيقة من أعجب الأجهزة وأعقدها في الإنسان، فهي في غاية الدقة والبراعة؛ فإن مكوناتها تصل إلى ٤٠ مكون، لو تغير مكان واحد منها فضلا عن فقدانه لتعطلت العين!

= وتباين الألوان "CONTRAST"، والإضاءة "LIGHT" وغيرها) وكل هذه تحتاج إلى وقت وجهد وخبرة لتعلمها، ولكن كل ذلك بالنسبة لعين الإنسان يتم تلقائيا بتدبير الله وفضله سبحانه في أجزاء من الثانية دون أي إعداد مسبق!

ولسنا نستطيع الإحاطة بتلك المكونات في هذه العجالة، ولكن حسبنا من القلادة ما أحاط بالعنق.

فمثلاً المكونات الموضوعية لحمايتها؛ بدءاً من تجويفه الغائر في الجمجمة والوسائد الدهنية التي تحميها، ثم الستائر الذكية (الأجفان) التي تظل مفتوحة دون إرهاق، وتغلق تلقائياً عند المخاطر، وفي أثناء ذلك تعمل الفلاتر آلياً (الرموش) على منع دخول الأتربة! بينما تقوم الدموع بتنظيف شامل وتُنقيها من الميكروبات بشكل دوري!

ولا يحتاج الإنسان إلى البحث عن مكان مناسب للنظر، فقد وضعت العينان في أفضل مكان لتعطينا أكمل رؤية^(١)!

ثم إن أردت أن تعجب فاعجب من الشبكية التي تحوي مليارات العصبي والمخاريط؛ وبها تُميّز العين بين كل لون وآخر مهما كان دقيقاً^(٢)؟

(١) وهذا ما نجد أصحاب شركات الكاميرا يحاولون محاكاته وهي التي تسمى بتقنية (3D)!

(٢) ينظر: مقالة مؤسس نظرية التطور حائر أمام تركيبية العين:

http://antishobhat.blogspot.com/2012/09/blog-post_26.html

و درس الوصول إلى الإيمان بالله في العقيدة الإسلامية لـ د. محمد راتب

<http://www.nabulsi.com/blue/ar/te.php?art=314>

النايلسي:

هذه العجائب التي لا تضاهى ولا تجارى أربكت كبار الملحنين ودعاة نظرية التطور، ف(داروين) نفسه، اعترف بمنافاة كون هذا التصميم المذهل لمكونات العين صدفة أو من خلق الطبيعة.

يقول داروين: "لكي يُفترض أنه من الممكن أن تكون العين بكل ما فيها من أجهزة فذة من أجل ضبط الطول البؤري للمسافات المختلفة، ومن أجل السماح بدخول كميات مختلفة من الضوء، ومن أجل تعديل الزيغ الكروي واللوني، قد تكونت عن طريق الانتخاب الطبيعي، فإن ذلك يبدو -وأنا أعترف بذلك- كشيء مناف للعقل إلى أعلى درجة"^(١).

ولكن هذا الإتيان والعمق في التعقيد ليس مقتصرًا على هذا العضو، بل هو دأب كل جزء في الإنسان مهما دق حجمه وقل وزنه، بل كل جزء من أجزاء الكون متقن ومعيّر بدقة^(٢)،

(١) أصل الأنواع ل(داروين)، ترجمة مجدي المليجي (ص ٢٩٣).

(٢) ولسنا بحاجة إلى معرفة وجود الإتيان في الكون كله لنثبت وجود من أتقنه، بل معرفتنا لإتيان أجزاء منه كاف في ذلك، وهذا هو منهج القرآن كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَبِيرِ﴾ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّدَكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ [الانفطار: ٦-٨]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣].

ففي أيِّ علم من علوم الطبيعة حدّقت بعينيك تجد العجب بدءاً من الذرّة وقوانينها مروراً بالفلك والفيزياء والكيمياء والأحياء، حتى إنها أذهلت أساطين الملحنين وأرغمتهم على الاعتراف بهذا الإتقان والإحكام^(١)، يقول الملحد الفيزيائي (ستيفن هوكنج): "معظم الثوابت الأساسية في نظرياتنا تبدو مضبوطة بدقة، بمعنى أنها لو عدلت بمقادير بسيطة، فإن الكون سيختلف كيفيًّا، سيكون في حالات عديدة غير ملائم لتطورات الحياة"^(٢).

ويقول عالم الفلك (ألن سانديج): "إني مقتنع أن وجود الحياة بكل ما فيها من تنظيم في كل كائن من كائناتها الحية مركب بمتهى البراعة"^(٣).

فإذا كان الكون بهذا الإحكام والإتقان، فالسؤال البديهي الذي يتبادر إلى ذهن العاقل هو: من الذي خلقها وفطرها بهذه البراعة والدقة؟

(١) من الكتب التي تحدثت عن الإتقان: كتاب شفاء العليل وكتاب مفتاح دار السعادة لابن القيم، وكتاب الحكمة في مخلوقات الله ﷻ للغزالي، وكتاب العلم ودليل التصميم في الكون لعدد من المؤلفين الغربيين، وهم: (مايكل بيهي وويليام ديمبسكي وستيفن ماير).

(٢) التصميم العظيم لـ(ستيفن هوكنج) (ص ١٩٢).

(٣) العلم ووجود الله لـ(جون لينكس) (ص ٣٢٨).

والدافع لهذا السؤال هي الضرورة العقلية، فإن الصنعة المحكمة تدل بدهاءة على الصانع الخبير، هذا هو مقتضى مبدأ السببية الفطري^(١)، ومن المحال أن يكون هذا الكون المتقن مجرد صدفة عند العقلاء، وقد شهدت الضرورة الرياضية أيضا باستحالة ذلك^(٢).

إذن هذا الدليل مركب من دلالة الحس الذي لا يجد الإنسان بدأً من تصديقه، ومن دلالة المبادئ العقلية التي فُطر الإنسان عليها منذ ولادته.

فالإيمان بالله تعالى ليست مسألة عاطفية تسليمية فحسب، بل مسألة مبنية على دلالة الحس والفطرة والعقل.

(١) وللاستزادة عن المبادئ العقلية الأولية ينظر: مقال دلالة المقدمات الأولية على وجود الله في موقع مركز سلف للبحوث والدراسات:

<http://salafcenter.org/522>

(٢) أثبت هذا الأمر كثير من علماء الرياضيات في العصر الحاضر، ومنهم كريسي موريسون في مثاله (الدراهم العشرة)، وخلاصته: لو أخذنا عشرة دراهم، ورقمناها بالتسلسل، ثم طلبنا من أحدهم إخراجها مرتبة، فإن احتمال ظهور الرقم (١) يكون بنسبة ١:١٠، وأما ظهور الرقمين (١، ٢) فبنسبة ١:١٠ (١٠×١٠=١٠٠)، وأما ظهور الأرقام العشرة كلها مرتبة فبنسبة ١:١٠ أس ١٠، ولو أجرينا عملية السحب ليل نهار بحيث نسحب ورقة كل خمس ثوانٍ لاحتجنا إلى (١٥٠٠) سنة لكي يكون هناك احتمال واحد لسحب هذه الأرقام العشرة بالتسلسل الصحيح!! ينظر: العلم يدعو إلى الإيمان (ص ٥١).

أضف إلى ما سبق أنه دليلٌ قوي حضوره شديد تأثيره، فقد كان سبباً في رجوع كثير من الملاحدة عن قولهم، يقول (أنتوني فلو) أحد أكبر ملاحدة العصر الحديث عن سبب رجوعه عن الإلحاد وإقراره بالخالق: "لا شك أن ما كشفه العلم الحديث من معلومات هائلة في مجال قوانين الطبيعة ونشأة الكون، وكذلك نشأة الحياة وتنوع الكائنات الحية، قد أمد هذا البرهان - دليل الإِتْقَان - بالكثير من الأدلة التي أعاننتني كثيرا في الوصول إلى هذا الاستنتاج"^(١).

وحرِيٌّ بدليل هذه سماته على أهم مسائل الوجود أن تناله العناية الفائقة من القرآن الكريم؛ فإن المسألة كلما كانت أعظم كان دليلها أوضح وعناية القرآن بها أكبر.

فالقرآن قد تناول هذا الدليل بأساليب متنوعة؛ كدعوة الإنسان إلى التأمل في نفسه؛ ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوِّدَكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ [الانفطار: ٦-٨]، والتأمل في وسائل المعرفة الموهوبة له؛ ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، والتفكير في إتقانه سبحانه لخلق هذا الكون، وتسخيره للإنسان؛ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا

(١) هناك إله لـ (أنتوني فلو) ضمن كتاب رحلة عقل لعمر و شريف (ص ٨٣).

أَنْعَمَّا فَهَمَّ لَهُمَا مَلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُؤْنَ ﴿٧٢﴾
 وَهُمْ فِيهَا مَنَّعٌ وَمَشَارِبٌ أَفْلا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴿[يس: ٧١-٧٣]، ويقول:
 ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ ﴿٢٤﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾
 فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعَبَا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَلَكَهًا
 وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَنَّاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴿[عبس: ٢٤-٣٢]، وتحدي البشر أن
 يجدوا في صنعه خللاً، يقول تعالى: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ
 تَفَوُّتٍ فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ أَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرِّيحٍ يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ
 حَاسِتًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الملك: ٣، ٤] ^(١).

وإضافة إلى كون هذا الدليل عقلياً شرعياً مؤثراً يمتاز أيضاً
 بكونه سهل المقدمات قريب الفهم؛ ولذا كان حاضراً عند العامة
 قبل العلماء ^(٢)، ومنها ما اشتهر من استدلال الأعرابي ببديع صنع
 السموات وأبراجها والأرضين وفجاجها على الله العليم الخبير،

(١) وللاستزادة من الأدلة الشرعية العقلية على ذلك ينظر: الأدلة العقلية النقلية
 على أصول الاعتقاد لـ د. سعود العريفي (ص: ٢٦٥ وما بعدها).

(٢) وهذا من أوجه الاتفاق بين هذا الدليل ودليل الإبداع والاختراع، ومنها أيضاً
 كونهما مستندين إلى آثار الله تعالى وخلقها، ويفترقان في أن الإبداع يعتمد
 على نشأة الكون في أول وجوده بينما الإتيان يعتمد على حالة الكون بعد
 وجوده، ينظر: مقال الإبداع والاختراع ووجود الله بمرکز سلف للبحوث
 والدراسات.

واحتجاج الإمام أبي حنيفة رَحِمَهُ اللهُ فِي مناظرته الشهيرة^(١)، وكذلك الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ استدل باختلاف اللغات والأصوات والنغمات على خالقها، والإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ استدل بورق التوت ذات الطعم الواحد، الذي تأكله الدواب ثم كل واحدة تخرجه شيئاً مختلفاً، فبينما تخرجه بعضها إبريسماً، تخرجه أخرى عسلاً، وثالثة مسكاً، ورابعة تلقيه بعراً، وأصله شيء واحد!

وأما الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ فاستدل بخروج الحي من الميت، حيث قال: "هاهنا حصن حصين أملس، ليس له باب ولا منفذ، ظاهره كالفضة البيضاء، وباطنه كالذهب الإبريز، فبينما هو كذلك إذ انصدع جداره، فخرج منه حيوان سميع بصير، ذو شكل حسن وصوت مليح"^(٢).

(١) وهذه القصة المشهورة قد أوردناها في مقال سابق بعنوان: الإبداع والاختراع ووجود الله في موقع مركز سلف للبحوث والدراسات، وخلاصته أن أبا حنيفة سئل عن وجود الله، فقال: دعوني فيني أفكر في سفينة لا قبطان لها، وهي مع ذلك تذهب وتجيء وتخرق الأمواج العظام حتى تتخلص منها بنفسها. فقالوا: هذا شيء لا يقوله عاقل، فقال: ويحكم هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع!!

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٩٧)، وقد ذكر هذا الدليل طائفة من علماء السلف في كتبهم؛ كالخطابي والبيهقي وابن رشد وابن حزم والرازي وابن تيمية وابن القيم وغيرهم من العلماء. ينظر: شموع النهار للشيخ عبد الله العجيري (ص ١٦٧) ❧

وختاما أخي القارئ الكريم:

أدعوك إلى ما دعا إليه الشاعر أبو نواس حين سئل عن
الله ﷻ، فقال:

تأمل في نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات بأحداق هي الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك^(١)
فتأمل ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]^(٢).



= وظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث لد. سلطان العميري (١٨٥/٢).
(١) أورده أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي في كتابه (أحسن ما سمعت)
(ص: ١٠).

(٢) إعداد: عمار بن محمد الأركاني.

كُونُ مَنْاسِبٌ لِلْحَيَاةِ!..

هل سألت نفسك يوماً: لماذا الطعام والشراب والضوء والحرارة وكل مستلزمات الحياة متوفرة وموجودة لدينا؟ لماذا نحن على كوكب الأرض دون غيره من كواكب مجموعتنا الشمسية ومليارات كواكب الكون؟ ولماذا نجمنا هو الشمس دون غيره من مليارات النجوم؟ ولماذا هذا الكون على ما هو عليه بحجمه المتناهي؟ وماذا لو تغيرت بعض أنظمتها الجذرية هل سيكون لنا مكان فيه؟ وهل كوننا مهياً لاستقبالنا ووجودنا على متنه، أم أن الأمر مجرد صدفة؟

اعتياد الشيء غالباً ما يقلل من أهميته وضروريته، ومع تقدم العلم واتساع معارفنا عن الكون صار حجم الكون المتناهي أمراً تستصعبه بعض العقول، بل واتخذته البعض مبرراً لإنكار خالقه وادعاء وجوده صدفة، وأصبح من أكثر الشبهات انتشاراً في الآونة الأخيرة مقارنة عمر الكون وحجمه المتناهي في الكبر بالإنسان وحجمه الذي لا يكاد يمثل شيئاً يذكر، مع دعوى أهمية الإنسان ومركزيته في هذا الكون الفسيح دون غيره من المحيطات، إذ كيف يكون الإنسان مميّزاً ومركزياً في هذا الكون، مع أنه مادياً = لا شيء تقريباً إذا ما قارناه بحجم الكون؟!!

وهذا ما أكده عالم الفيزياء الشهير الملحد (ستيفن هوكنج) حيث يقول: "الجنس البشري مجرد حُثالة كيميائية على كوكب متوسط الحجم، يدور حول نجم متوسط، في مجموعة طرفية، في واحدة من بين مئات مليارات المجرات، نحن أتفه من أن أتخيل أن الكون كله موجود من أجلنا، هذا يشبه قول أنك ستختفى لو أغلقتُ عيني" (١).

إن الناظر لهذه الأطروحة يجدها أطروحة أحادية النظرة لا حيادية، فهي تنظر للإنسان على المستوى المادي فحسب - وهو أمر معتبر كونها تصدر من ملحد لا يؤمن سوى بالمادة وحدها - لكن الواقع غير ذلك تمامًا، فنحن في حياتنا اليومية لم نجد أهمية الأشياء بناءً على حجمها المادي فحسب، فالفيل ليس أهم من النملة أو يتميز عنها بمجرد حجمه المادي، وليس النيتروجين الذي يمثل ٧٨٪ من الغلاف الجوي بأكثر أهمية من النيتروجين الذي يمثل ٢١٪ فقط، كما أن باقى الغازات ليست عديمة الأهمية؛ لأنها مجتمعة لا تمثل سوى ١٪ من الغلاف الجوي (٢)،

(١) STEPHEN HAWKING, From an interview with Ken Campbell on the 1995, Reality on the Rocks: Beyond Our Ken

(٢) ينظر : <http://www.windows2universe.org/earth/Atmosphere/overview.html>

فكل من هذه الغازات له أهميته بالنسبة لوجودنا، وغياب أحد هذه الغازات أو اختلاف نسبتها عما هي عليه سيسبب أضرارًا بالغةً لنا وللحياة جميعًا على وجه الأرض، بل إن كثيرًا من الأشياء في حياتنا نراها أقل حجمًا لكنها أكثر تميزًا وأهميةً.

لنتحدث عن محور موضوعنا: الإنسان، فالإنسان خير دليل على ما نقول، فرغم حجمه المادي الصغير إلا أن كل ما حوله مسخرٌ له، فالأرض مسخرة له بكل ما عليها، والشمس والأفلاك مسخرة له.. إلخ.

بيد أننا سنردُّ على صاحبنا المادي تنزُّلاً بنفس المعيار الذي سلكه صاحبنا المادي، وهو النظر إلى الكون من ناحية مادية فقط، لنرى هل أنصف في أطروحته بنظرته أم لا؟! ولنجعل النقاش في نقطتين رئيسيتين:

أولاً: هل الإنسان شيء ضئيل حقًا بالنسبة لحجم الكون^(١)؟

من يريد الحق عليه أن ينظر للأمر من جميع الجوانب، ولا يأخذ جانبًا لأنه يؤيد وجهة نظره ويترك آخر لأنه مخالف له؛ إذ ينظر غالب الماديين باستمرار إلى مقارنة حجم الكون واتساعه بحجم الإنسان.

(١) انظر: كتاب الصنع المتقن: دلالات الفيزياء على وجود الخالق، تأليف:

مصطفى نصر قديح، مركز دلائل، الرياض، ٢٠١٧م، (ص: ١٣١-١٣٣).

لكن حقيقة الأمر أن الكون يشتمل على ثلاثة مستويات

وهي:

◆ المستوى الضخم الهائل (Super-Macro) الذي دائما ما ينظر إليه الملحد ويترك غيره، وهذا المستوى تحكمه قوانين معينة = النسبية العامة.

◆ المستوى العادي الطبيعي (Macro) وهو ما نتعامل معه طبقاً لأحجامنا في حياتنا العادية ولا نستغرب نتائجه، وهو ما ينطبق عليه قوانين نيوتن أو الفيزياء الكلاسيكية.

◆ المستوى الصغير - الذرة وما دونها (Micro)، وهو ما ينطبق عليه قوانين الكوانتم، ودائما ما تزعجنا نتائجه، نظراً لاختلاف طبيعته عن طبيعتنا.

دعنا ننظر الآن لهذه المستويات الثلاثة ونقارنها بحجم

الإنسان، لنرى حقيقة الأمر:

◆ طبقاً للمستوى الضخم فإن حجم الإنسان لا يكاد يُذكر بالنسبة للكون واتساعه، وهذا ما ينظر إليه الملحد دائما؛ لأنه دائما ما يؤيد وجهة نظره التي يريد أن يثبتها.

◆ طبقاً للمستوى العادي فغالبا لا يشغلنا مقارنته بمقارنة الإنسان، لأنهما تقريبا في تناسق من قبل الحجم.

◆ طبقاً للمستوى [الميكرو] وهو ما يتجاهله الملحد دائما، فالأمر أن حجم الإنسان بالنسبة لهذا الحجم المتناهي في الصغر

أشبه كثيرا بحجم الإنسان بالنسبة لحجم الكون المتناهي في الكبر، فالإنسان بالنسبة لمستوى الميكرو -الكوانتم- هو شيء عملاق جدا، والأجسام الكوانتية أشياء تافهة مقارنة مع حجم الإنسان، ولتوضيح الأمر دعنا نأخذ المثال التالي:

انظر إلى النقطة الموضوعية بين القوسين التاليين [.]، هل تعرف هذه النقطة عبارة عن ماذا؟

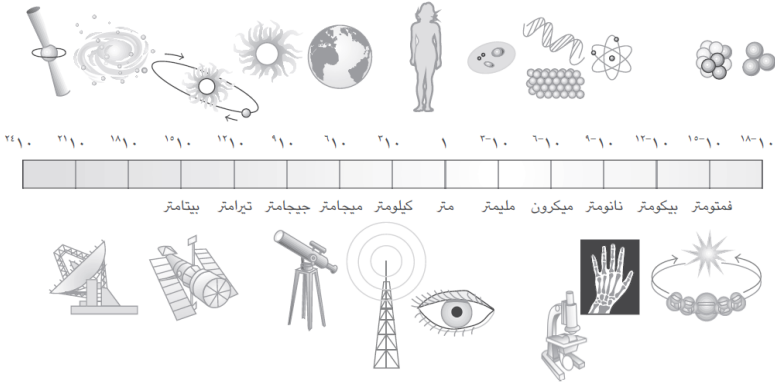
يحتوي حبرها على نحو مائة مليار ذرة من الكربون. ولكي ترى (ذرة واحدة) منها بالعين المجردة لا بد أن تكبر النقطة حتى يصل قطرها إلى ١٠٠ متر.

لكن لكي ترى (نواة الذرة)، لا بد أن تكبر النقطة حتى يصل قطرها إلى ما يعادل قطر كوكب الأرض.

ولترى (الكوارك) لا بد أن تكبر النقطة حتى القمر، ثم تستمر في التكبير لضعف هذه المسافة عشرين مرة.

وبالتالي: فإن الإنصاف يقتضي النظر للأمر من جميع الجوانب، والشكل (أ) يعبر عن المستويات التي تحدثنا عنها بالأعلى، ويبين جيدا حجم الإنسان الحقيقي في هذا العالم. وهي صورة مأخوذة من كتاب "فيزياء الجسيمات": مقدمة قصيرة جدا لـ(فرانك كلوس) حيث تصف الصورة: مقارنات بين النطاق البشري وما وراء الرؤية الطبيعية على النطاقات الصغيرة والمسافات البالغة الكبر.

بالتالي يتضح لنا أن القول بأن حجم الإنسان -المادي- شيء تافه بالنسبة لحجم الكون هو مجرد افتراء مبني على نظرة أحادية تفتقر إلى الإنصاف.



شكل (أ)

مقارنات بين النطاق البشري وما وراء الرؤيا الطبيعية
على النطاقات الصغيرة والمسافات الكونية الشاسعة



ثانياً: لماذا الكون كبيرٌ هكذا؟ هل هو أمرٌ عبثيٌّ؟ أم صنعٌ مُتقنٌ يناسب وجود الحياة؟

لعل الاكتشافات العلمية نفسها صارت هي التي تجيبنا على هذا السؤال؛ إذ تبين خلال العقود الماضية أن عمر الكون الكبير وحجمه الفسيح لم يكن عبثاً، وإنما هو أمرٌ معتبرٌ ليسمح للإنسان بالوجود، حيث تشير أحدث القياسات إلى أن عمر الكون حوالي ١٣.٧٣ مليار سنة^(١)، قد يبدو هذا وكأنه وقت طويل من وجهة نظر شخص عادي، ولكن علماء الفلك يعتقدون خلاف ذلك، من وجهة نظر فلكية فإن ١٣.٧٣ مليار سنة تمثل الحد الأدنى من الوقت اللازم لإعداد منزل للبشرية^(٢).

على مدار نصف قرن مضى توصل الفيزيائيون النظريون إلى سلسلة من الاكتشافات تشير جميعها إلى وجود مجموعة ثوابت معينة في الفيزياء تمتلك قيماً محددة وموجودة بشكل استثنائي، بحيث تسمح بوجود كونٍ مُهيأٍ لاستقبالنا ولحياتنا عليها.

فخلال العقود الأربعة الأخيرة اكتشف العلماء ظاهرة جديدة تُدعى "Fine Tuning" أي الضبط الدقيق، حيث وجد العلماء أن كوننا يحتوي على ثوابت وقيم أولية لا يمكن أن تتغير،

(١) Planck Collaboration (2015). "Planck 2015 results. XIII. Cosmological parameters (See PDF, page 32, Table 4, Age/Gyr, last column)."

<https://arxiv.org/abs/1502.01589>

(٢) E. Komatsu et al., "Five-Year Wilkinson Anisotropy Probe (WMAP) Observations: Cosmological Interpretation," *Astrophysical Journal Supplement Series* (2008): in press

وإلا انعدم الكون واستحال وجود الحياة عليه، وبسبب هذه الملاحظات فقد ظهر مبدأ جديد لدى علماء الكونيات يُدعى بالمبدأ الإنساني "مبدأ التسخير"، حيث تشير «النظرية الإنسانية» إلى أن «الثوابت» الأساسية في الفيزياء هي السر خلف الكون الداعم للحياة.

ولذا فقد أدت هذه الاكتشافات لصياغة مصطلح جديد يُدعى «بالمبدأ الإنساني» (The Anthropic Principle) وهو مشتق من الكلمة اليونانية (Anthropos)، والتي تعني «إنسان». وينص هذا المبدأ على أنه إن لم يكن الكون مناسباً للحياة... لما استطعنا أن نكون هنا ونتحدث حول ذلك، فالحياة موجودة في الكون؛ لأن الشروط وُجدت بحيث تجعلها - الحياة - ممكنة، نعم فالكون بكل مكوناته وثوابته الكونية مهياً لاستقبال الحياة... الحقيقة الواضحة بخصوص الثوابت الكونية تؤكد على أنها صُممت بعناية تتيح الحياة وبمتمهي الضبط المدهش^(١).

والذي يعني أن الكون وكل ما فيه مسخرٌ لاستقبال الإنسان، فيبدو أن هذه القوانين مضبوطة بدقة؛ بحيث تسمح بوجود العمليات الكيميائية المعقدة... ومن ثم بوجود الحياة البشرية في النهاية،

(١) Stephen Hawking. A Brief History of Time, Bantame press, London, 1988, P. 121-125

فلو كانت قوانين الكهرومغناطيسية والفيزياء النووية مختلفة اختلافاً طفيفاً عما هي عليه.. لكانت العمليات الكيميائية والحيوية مستحيلة^(١).

ويعبر العالم الشهير مايكل دنتن (Michael J. Denton) عن هذا الأمر قائلاً: "لم يتصور إنسان أن أية نظرية أو فكرة أخرى على الإطلاق يمكنها أن تُعَدّل في جرائها وقوتها هذا التأكيد القوي = أن كل السماوات المرصعة بالنجوم، وأن كل أنواع الحياة، وأن كل خاصية من الواقع موجودة كي تخلق موطناً مناسباً للبشرية"^(٢).

إن الكون الذي نعيش فيه لم يُخلق عبثاً، ولم يكن اتساع حجمه هباءً، وإنما هو أمر ضروري ليناسب وجود حياة، فقد تميز كوننا بالعديد من العوامل التي تأخذ قيماً محددة ودقيقة، والتي تبدو وبشكل ملحوظ مضبوطة لجعل الحياة على الأرض ممكنة.

فعلى سبيل المثال: يجب أن يكون عمر الكون كبيراً بما فيه الكفاية؛ ليسمح بتشكيل المجرات والنجوم والكواكب، والجيل الثاني والثالث من النجوم، والتي تسمح باندماج الكربون

(١) بيتر كولز: علم الكونيات، مقدمة قصيرة جداً، ترجمة: محمد فتحي خضر، ط. هنداوي، القاهرة، ٢٠١٥م، ص (١٢٥).

(٢) Michael J. Denton. 1998. Nature's Destiny: How the Laws of Biology Reveal Purpose in the Universe. New York: The Free Press. P. 3-4

والأكسجين حيث ينتجان بواسطة الانفجارات المبكرة للنجوم^(١). فخلال أول ١٥٪ من عمر الكون، وهي فترة أكثر من ٢ مليار سنة استطاعت النجوم أن تتكوّن، ولكن لم يكن هناك ما يكفي من الغبار والصخور؛ لتتكوّن الكواكب الأرضية^(٢)، فعمر الكون لا يمكن أن يكون عشوائياً^(٣).

إذن يجب أن يكون حجم الكون وعمره كبيرين بما فيه الكفاية، فنحن بحاجة إلى كون قديم بما يكفي لظهور الجيل الثاني من النجوم إلى حيز الوجود، ثم من أجل كواكب لتمتلك حياة مستقرة لفترة طويلة بما فيه الكفاية حتى يمكن أن تتواجد حياة ذكية، وهكذا يجب أن يكون الكون بحوالي ١٥ مليار سنة ليسمح للحياة بالتواجد^(٤).

إننا لو تتبعنا هذا الأمر على كافة الأصعدة، فسنجد أن لكل شيء حولنا أهمية بالغة تساهم بشكل مباشر أو غير مباشر

(١) **New evidence** for anthropic theory that fundamental physics constants underlie life-enabling universe, January 16, 2015.

[<http://phys.org/news/2015-01-evidence-anthropic-theory-fundamental-physics.html>] [<http://goo.gl/MSb4kX>]

(٢) **Peter Ward & Donald Brownlee: Rare Earth, Why Complex Life Is Uncommon in the Universe**, Copernicus Books, 2000, p39

(٣) **Dicke, R. H. (1961)**. "Dirac's Cosmology and Mach's Principle". Nature. 192 (4801): 440-441

(٤) J Gribbin and M Rees, Cosmic Coincidences. (Black Swan, 1991).

في وجودنا واستمرار الحياة على الأرض، العجيب أن جهل البعض بخصائص وصفات بعض الظواهر الكونية يجعله دليلاً على عدم أهميتنا، أو على وجود الكون عبثاً، مع أن هذا مخالف للواقع وللمكتشفات العلمية، وكأن عدم العلم = علماً بالعدم! فبعضاً من هؤلاء جعل عدم علمه بتسخير الكون وتيسيره حتى يناسب وجود حياة، علماً بعدم وجود ذلك وانتفاءه.

إن مبدأ التسخير هو مبدأ إيماني بالمقام الأول، وقد أثبتته العلم مؤخراً، ولمثل هذا الأمر يشير الفلكي سير مارتن ريس قائلاً: "كوننا ضخم جداً، وهو ما يبدو في البداية كدليل على عدم أهميتنا في المخطط الكوني، في الواقع: إنه مُستلزم (ضروري) لوجودنا، هذا لا يعني عدم إمكانية وجود كون أصغر من كوننا، ولكن لا يمكننا الوجود فيه"^(١).

فهنالك اتفاق عام بين علماء الفيزياء وعلماء الكونيات الآن بأن الكون في نواحيه المتعددة «تم ضبطه بدقة» لأجل الحياة^(٢).

ويُلخص هذا كله عالم الفيزياء الشهير (بول ديفيز) قائلاً: "لا يمكنني أن أؤمن بأن وجودنا في هذا الكون مجرد دعاية قدر،

(١) Martin Rees (2000). Just Six Numbers: the deep forces that shape the universe. London: Weidenfield & Nicolson p. 9–10

(٢) Paul Davies, "How bio-friendly is the universe?" International Journal of Astrobiology, vol. 2, no. 2 (2003): 115

أو حادث تاريخ، أو مجرد صورة عرضية في الدراما الكونية العظيمة^(١).

وهذا كله هو ما أكده القرآن الكريم في كثير من آياته عن حقيقة مبدأ التسخير، فالله خلق الإنسان وكرّمه على كثير من مخلوقاته، وسخر له السماوات والأرض والشمس والقمر والنجوم، وهياً له أسباب الحياة على الأرض واستمرارها، فسخر له البحار والأنهار والدواب وكثير ممن خلق، يقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسَخَّرْ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، وهذا شامل لأجرام السماوات والأرض، ولما أودع الله فيهما من الشمس والقمر والكواكب والثوابت والسيارات وأنواع الحيوانات وأصناف الأشجار والثمار وأجناس المعادن وغير ذلك مما هو معدٌّ لمصالح بني آدم ومصالح ما هو من ضروراته، فهذا يوجب عليهم أن يبذلوا غاية جهدهم في شكر نعمته وأن تتغلغل أفكارهم في تدبر آياته وحكمه، وكل ذلك دال على أنه وحده المألوه المعبود الذي لا تنبغي العبادة والذل والمحبة إلا له، وأن رسله صادقون فيما جاءوا به، فهذه أدلة عقلية واضحة لا تقبل ريباً ولا شكاً^(٢)، ولو ظللنا نعدد ما سخره الله لنا

(١) Paul Davies, The Mind of God, New York: Touchstone, 1992, p. 232

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، الشيخ عبد الرحمن السعدي، ص: ٩٣٦. سورة الجاثية: آية ١٣.

ولضمان بقائنا على الحياة ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً^(١).
 فإنك إذا تأملت هيئة هذا العالم ببصرك، واعتبرتها بفكرك،
 وجدته كالبيت المبني، المعدُّ فيه ما يحتاج إليه ساكنه من آلة
 وعتاد، فالسمااء مرفوعة كالسقف، والأرض ممدودة كالبساط،
 والنجوم منضودة كالمصابيح، والجواهر مخزونة كالذخائر،
 وضروب النبات مهياة للمطاعم والملابس والمآرب، وصنوف
 الحيوان مسخرة للمراكب، مستعملة في المرافق، والإنسان
 كالمملك للبيت، المخول فيه، وفي هذا كله دلالة واضحة على أن
 العالم مخلوق بتدبير وتقدير ونظام، وأن له صانعا حكيما تام
 القدرة بالغ الحكمة^(٢)^(٣).



(١) انظر الآيات الآتية على سبيل المثال لا الحصر وتفسيرها [البقرة: ١٦٤، الأعراف:

٥٤، النحل: ١٢-١٤-٧٩، الأنبياء: ٧٩، الحج: ٣٦-٣٧-٦٩، ص: ١٨-٣٦،... إلخ].

(٢) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في "بيان تلبيس الجهمية" (١/ ٥٠١) بقوله: "وقد
 ذكرنا ما ذكره الخطابي من كراهة طريقة الأعراض، وأنها بدعة محظورة، وقد
 قال في أوائل كتابه "شعار الدين"، ثم ذكر في (ص: ٥٠٦) ما ذكره البيهقي عن
 الخطابي".

(٣) إعداد: مصطفى نصر قديح.

الإرادة الحرة ووجود الله

هل تشعر -أخي القارئ- بحريتك في أن تقرأ مقالتي هذه، وأن تنتقل إلى أي سطر منها، أو أن تُعرض عنها كلية، أو أن تنتقدني وتكتب لي ردًا عليها، أو أن تحفظها في مفضلتك؟ أو ما شئت من الخيارات؟!

لا جرم ستقول: نعم، أشعر بحرية تامة في اختيار أيِّ واحد من ذلك بفطرتك وسجيتك، ولكن الأمر يختلف عند الملاحظة المنكرين لوجود الله تعالى.

فالمراء منا يشعر فطرةً بحريته في أن يفعل ما يشاء، وأن ثمة فرقاً بينه وبين الجمادات، فباستطاعته أن يكتب كتاباً، أو يرسل رسالةً، أو يقود سيارةً، ويدرك أن تلك الأفعال تحصل بإرادته وقدرته، ويفرق بين هذه الأفعال والأفعال الصادرة منه اضطراراً، أو التي تسمى (لا إرادية)؛ كنبضات القلب، وجريان الدم في عروقه.

وذلك أن الله ﷻ الذي خلقنا، هو الذي كرّمنا بأن أعطانا الإرادة والاختيار من بين سائر مخلوقاته، بعد أن عرضها على كل المخلوقات فلم تُطق تحمّلها؛ كما أخبر الله تعالى عن ذلك بقوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا

وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ﴿ [الأحزاب: ٧٢]، وسرُّ تحمُّل الإنسان لهذه الأمانة هو طمعه في فضل الله ومنه سبحانه، فالله تعالى رغبنا في الصلاح والإيمان؛ فجعل لمن يختار ذلك جنات الخلد والرضوان؛ وبذلك ينجلي كمال فضله وإحسانه ومحبته، وحدّثنا من الفساد والكفران؛ وجعل جزاء من اختار ذلك السعير والخسران؛ وبذلك يتبين كمال عدله وحكمته، كما دلّت عليه الآية التي بعدها؛ ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٣].

فواعجباً من كمال قدرته ﷻ؛ الذي أعطى عباده القدرة والاختيار؛ ليختاروا هم عبادته سبحانه وينالوا عظيم فضله وكرمه ﷻ، ولم يجعلهم مجبورين على عبادته؛ فإن "أمر الله أعظم من أن يجبر ويقهر، ولكن يقضي ويُقدّر ويخلق ويجبل عبده على ما أحب" (١).

وبهذا ينسجم الإيمان بالله ﷻ مع نظام الكون وإرادة الإنسان الحرة، وتتواءم الفطرة مع الواقع والعقل، ويسير الفكر والسلوك سيراً متوافقاً، وتستقر النفوس قبل المجتمعات.

(١) مقولة للإمام الزبيدي رواها الإمام اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٤ / ٧٧٥).

وأما عند إنكار وجود الله سبحانه، فإن الإنسان يعجز عن تفسير هذه الظاهرة تفسيراً منطقياً؛ ولذا يلجأ الملحدون إلى إنكار الإرادة الحرة من أصلها، ويناقضون فطرتهم وواقعهم بدعوى أن الإنسان مجبور على فعله، كما عبّر عنه داعية الإلحاد الشهير (ريتشارد دوكنز) بقوله: "الشفرة الوراثية لا تكثرث ولا تدري، إنها كذلك فقط، ونحن نرقص وفق أنغامها"، ويصرح بذلك الملحد (سام هاريس) الذي افتتح كتابه في هذا الموضوع (الإرادة الحرة) بقوله: "الإرادة الحرة هي وهم، نحن ببساطة لا نصنع إرادتنا، الأفكار والنوايا تنشأ من أسباب خلفية لا نعيها، ولا نملك سيطرة واعية عليها، نحن لا نملك الحرية كما نعتقد، في واقع الأمر الإرادة الحرة هي أكثر من وهم (أو أقل)"^(١).

ويقول: "اختياري مهمة، وهناك طرق لاتخاذ قرارات أكثر حكمة، لكني لا أستطيع أن أختار ما أريد اختياره، وإذا ظهر أنني قادر على ذلك؛ كالعودة مثلاً للوراء لاتخاذ أحد قراراتي فإنني لا أختار ما أختار أن أختاره؛ إنه تسلسل يفضي بنا دوماً للظلام"^(٢).

هكذا عند الإعراض عن الله ﷻ، يحل الظلام في عين الإنسان، ويدخل نفقاً ضيقاً مليئاً بالتناقضات، تناقض مع الفطرة، وتناقض مع الواقع، وتناقض مع العقل.

(١) الإرادة الحرة لـ (سام هاريس)، ترجمة: هيئة خطاب (ص ٥).

(٢) المصدر السابق (ص ٤٤).

فإنَّ الإنسانَ سويَّ الفطرة يستنكر نفي الإرادة الحرة عنه؛ لأنَّ الكيانَ الإنساني لا يُتصور خلوه من الإرادة الحرة والشعور الفطري بها، بل ذلك أمر ممتنع؛ لكون الشعور والإرادة من أهم ركائز الحقيقة الإنسانية^(١).

وأيضاً واقع حياة البشر يشهد بهذا الذي قررناه، فإننا نجد الأمم والمجتمعات تُسند الأفعال إلى أصحابها وتحمّلهم كامل المسؤولية تجاهها؛ فيمدح الإنسان ويُذم تبعاً لإرادته وأفعاله، وكيف تستقر حياة البشر وتستقيم إلا بهذا؟!!

ولذا لا يقبل أولوا الألباب الاعتذار عن الإجرام بدعوى الجبر، بل لو اعتذر معتذراً بذلك، كان خارجاً عن مسالك العقلاء، ورجَّح في عداد المجانين.

وهذا هو نهج القرآن؛ حيث يسند أفعال العباد إلى فاعليها؛ كقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ [يوسف: ٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وبيّن للناس الحقّ من الباطل ويترك لهم حرية الاختيار؛ ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، ويعلّل ﷺ بأن الثواب والعقاب يكون على حسب العمل، فإن الجزاء من جنس العمل؛ يقول تعالى في أهل الجنة: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي

(١) ينظر: درء التعارض (٨/ ٤٦٤)، وينظر: سيكولوجية الطفل لعزیز سمارة وآخرين (ص: ٣٢-٣٣).

الآيَاتِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴿[الحاقة: ٢٤]، ويقول تعالى في أهل النار: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴿[الدخان: ٤٩-٥٠]، وأوضح من ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾ ﴿[النازعات: ٣٧-٤١]، والنصوص القرآنية في هذا المعنى كثير فليتامل.

وليس معنى هذا إنكار خلق الله لأفعال العباد، وإنما نعتقد أن الله خلقنا وأعمالنا؛ كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٦١﴾ ﴿[الصفات: ٩٦]، ولكن ميّزنا عن سائر مخلوقاته بالإرادة الحرة، وزودنا بأدوات المعرفة؛ لنعرف سبيل الخير والشر، يقول تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ ﴿[البلد: ٨-١٠]، ثم يجازينا ويحاسبنا على أعمالنا واختياراتنا؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ ﴿[الشمس: ٧-١٠]، فالعبرة بما يختاره المرء ويريده؛ ولذلك لا يحاسب على ما أكره عليه؛ كما في قصة عمار بن ياسر الذي أنزل الله فيه قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ ﴿[النحل: ١٠٦]﴾^(١).

(١) رواه الحاكم (٣/٣٥٧)، والبيهقي (٨/٢٠٨ وما بعدها)، وصححه الذهبي، وذكر الحافظ ابن حجر اتفاق العلماء على أنها نزلت في عمار بن ياسر رضي الله عنه، ينظر: الإصابة (٢/٥١٢).

فلا تناقض بين القول بحرية الإرادة والإيمان بالقدر؛ كما علم النبي ﷺ ذلك للصحابة حين استشكلوا هذه المسألة بقوله: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»، وتلا قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْتَفَى ۝٥ وَصَدَقَ بِالْحَسَنَىٰ ۝٦ فَسَيِّئَرَهُ لَلْبُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحَسَنَىٰ ۝٩﴾ [الليل: ٥-٩] (١).

ولو تجاوزنا كون نفي الإرادة الحرة عن الإنسان مناقض لدين الإسلام والفطرة والعقل والواقع، وسلّمنا بصحة قولهم جدلاً، فكيف نحل الإشكالات والمعضلات التي تنتج في ظل تبني ذلك؟!!

◆ كيف نردع المجرم ونعاقبه في المحاكم والشرط مع أنه لا ذنب له، وإنما هو مجبورٌ على إجرامه؟!!

◆ كيف يُكافأ المحسن ويحتفى به مع أن إحسانه ليس اجتهاداً منه، وإنما هو مجبورٌ عليه؟

◆ لم الامتعاض من وجود الشرِّ في العالم مع أنها مسألة حتمية مبرمجة ليس إلا؟!

◆ ما الدافع للاشتغال بتحصيل العلوم والاجتهاد في سبيل تحقيق الأهداف، ما دامت المسألة محسومة والنتائج معروفة مسبقاً؟

(١) رواه البخاري (٤٩٤٩).

◆ بل لماذا يسعى الإنسان في هذه الحياة ويكدُّ لتحقيق مآربه، فإن
الأفضل على هذا أن يبقى ساكناً لا يتحرك!

◆ ولماذا يسعى الملحدون إلى نشر فكرهم والدعوة إليه
بتحمُّس؛ مع أنه يعتقد أنه مجبور على إلحاده والمؤمن مجبور
على إيمانه؟!

هنا أخي القارئ، تعلم أن المسألة لا تنتهي بمجرد إنكار
وجود الله سبحانه؛ وإنما يتبعه إنكار أكبر البدهيات التي هي من
أهم ركائز الكيان الإنساني.

وحينئذ انتظر الهروب من التكاليف والمسؤوليات، والخنوع
إلى الكسل والقعود عن بناء الحضارة والمجتمعات! والانجرار
وراء الشهوات والملذات! بل وتشريع الجرائم والقبائح
والمستفذرات! وإبطال القوانين العامة وهدم المجتمعات!
ولا استقامة لحياة الإنسان إلا بالإيمان برب الأرض
والسماوات ﷻ^(١).

(١) إعداد: عمار بن محمد الأركاني.

الإرادةُ الغائيةُ ووجودُ الله

يتميز الكائن البشري عن كل المخلوقات ببحثه وتساؤله عن
الأسئلة الوجودية الكبرى:

من أين جاء الإنسان إلى الكون؟

وما الغاية من وجوده؟

والى أين المصير؟

تلك الأسئلة التي أجهدت العقول وأشغلت الأناسي على مر
العصور، وأكثر هذه الأسئلة إلحاحًا على الإنسان هو السؤال عن
غاية وجوده هو؟

فإن كل إنسان يجد من نفسه ضرورة أن لوجوده غاية، وأنه
وُجد لهدف، وإن كان الإنسان لا يرضى لعقله بأن يتخيّل صناعة
جهاز صغير بلا فائدة، فكيف يُعقل أن ترضى نفسه بالقول بأن لا
فائدة من وجوده!

ذلك أن الإنسان لا ينفك عن الإرادة والهَمِّ السابقين للحركة؛
كما أخبر النبي ﷺ: «أصدق الأسماء حارثٌ وهمَّام»^(١)،

(١) أخرجه أبو داود برقم (٤٩٥٢) وصححه الألباني.

ثم لا بد أن تنتهي إرادات الإنسان إلى أمر مراد لنفسه هو منتهى الإرادات، فهذه هي الإرادة الغائية.

ولعل المقصود يتضح إذا ما تأملنا هذا الحوار:

كان أحد الطلاب ينام مبكرًا فسأله زميله، لماذا تنام مبكرًا؟

فأجاب: لأستيقظ نشيظًا.

فسأله: ولم تريد أن تستيقظ نشيظًا؟

فأجاب: لأستوعب الدروس.

فأعاد: ولم تريد استيعاب الدروس؟

فأجاب: لأتفوق وأتخرج من الابتدائية؛ لأني أريد أن أصبح

دكتورًا جامعيًا.

فسأله: ولم تريد أن تصبح دكتورًا جامعيًا؟

فأجاب: لأعمل مدرسًا بالجامعة وأجمع المال.

فسأله: ولم تريد جمع المال؟

فأجاب: لأتزوج...

وهكذا تستمر تلك الإرادات الإنسانية المرادة لغيرها، ولكن

لا بد أن تنتهي إلى مراد لنفسه، لتكون هي الإرادة الغائية من كل

تحركاته.

فإذا كان الإنسان لا بد له من إرادة غائية يكون المراد فيها

مرادًا لنفسه، فهذا هو الإله الذي تأله القلوب، وتهوي إليه

النفوس، وتقصده الفطر حين الكروب.

إذن "لا بد من إله مُعين، محبوب لذاته من كل حيٍّ، ومن الممتنع أن يكون هذا غير الله، فلزم أن يكون هو الله، وأن كل إنسان ولد على محبته ﷺ" (١).

ولا إشكال عندنا نحن المؤمنين بالله تعالى في هذا، فالشعور الفطري بالغائية متوائم مع الغاية التي خلقنا لها؛ لأننا نؤمن بأن الله خالقنا ورازقنا ومدبر شؤوننا؛ ومن كان كذلك فهو المستحق للعبادة؛ كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

هذه الغاية التي خلق الله سبحانه الجن والإنس لها، ألا وهي عبادته وليس ذلك لحاجة؛ وإنما لتتجلى صفات كماله في خلقه، من رحمته ومغفرته ومحبته ﷺ.

ذلك أن الله ﷻ ميز الإنسان عن غيره من المخلوقات بحرية الإرادة بين الطاعة وعدمها، وتلك هي الأمانة التي أكرمها الله بتحمُّله إياها؛ فإن أحسن أحبه الله ورحمه؛ فظهرت محبته ورحمته، وإن أساء جازاه؛ فظهر عدله وحكمته، وإن استغفر غفر له؛ فظهرت مغفرته وعفوه (٢).

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٨ / ٤٦٤).

(٢) ينظر: تفسير السعدي (ص: ٨١٣)، ومما يدل على ذلك الحديث القدسي الذي أورده مسلم في صحيحه برقم (٢٥٧٧) «يا عبادي، إنكم تخطئون =

وسرُّ تحمُّل الإنسان لهذه الأمانة إدراكه عظيم شرف ذلك عند الله ومحَبَّته سبحانه لذلك، وعلمه جزيل ثواب الله تعالى؛ فتحمَّلتها ليطفر بهذه المنازل والدرجات العلى، فكان أن كَرَّمه الله على المخلوقات، وأسجد له ملائكته، وخصَّه بدخول جنته سبحانه^(١).

إذن الغاية من وجود الإنسان هي خضوعه لربه باختياره، متناغماً مع خضوع المخلوقات كلها الذي ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤].

ولتتحقق هذه الغاية أرسل الله سبحانه الرسل مبشرين ومنذرين بهذه القضية الجوهرية؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، "ولولا الرسالة لم يهتد العقل إلى تفاصيل النافع والضار في المعاش والمعاد"^(٢).

= بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعا، فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي، فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وكنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وكنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد، ما نقص ذلك من ملكي شيئا...».

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢١٦)، و(٦/ ٤٨٨)، وتفسير الثعلبي (٧/ ٦٠)، أضواء البيان للشنقيطي (٥/ ٣٦٣).

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٩/ ١٠٠).

وهذا الشعور الفطري بالغائية يرتقي بالإنسان ويرفع قيمته بعيداً عن الإغراق في أحوال المادية البهيمية، ويحميه من جعله مجرد سلعة كغيره من السلع؛ لتكون كرامة الإنسان مقدسة^(١).

"وقد أنكر تعالى على الإنسان حسبانته وظنه أنه يترك سدى، أي: مهملاً، لم يؤمر ولم ينه... قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿القيامة: ٣٦﴾... وقد نزه تعالى نفسه عن هذا الظن الذي ظنه الكفار به تعالى، وهو أنه لا يبعث الخلق ولا يجازيهم منكرًا ذلك عليهم في قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْ مَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١١٥﴾ ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ﴾ ﴿١١٦﴾ ﴿المؤمنون: ١١٥، ١١٦﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩].

ولكن المنكر لوجود الله ﷻ لا يملك تفسيرًا مقنعًا لهذا الشعور الفطري بالغائية، بل ولا يبحث عن غاية وجوده، بل لا يأبه بملاحظة العصر عن وصف من يبحث عن ذلك بالساذج والسخيف^(٣).

(١) وفهم هذا المعنى مما زاد إقبال غير المسلمين إلى الإسلام، ينظر: <http://www.pal-tahrir.info/hizbuttahrir-at-world/2440----html>
 (٢) أضواء البيان للشنقيطي (٧/ ٤٤٦)، وينظر: مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٩٠).
 (٣) نقلًا عن: شموع النهار لعبد الله العجيري (ص ٧٦)، وقد عُرف ذلك عن داعية الإلحاد الشهير (ريتشارد دوكنز).

ولم يبحث عن غاية لوجوده، وهو يعتقد أنه مجرد صدفة
عمياء لا معنى لها!!

ولنا أن نتساءل هنا من السخيف، هل السخيف هو من يتواءم
مع أخصّ سمات الإنسان ويبحث عن غايته؟ أم من يحاول نزع
هذه السمة عنه؟

فإن "الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يطرح تساؤلات عمّا
يُسمّى العلل الأولى، وهو لا يكتفي بما هو كائن، وبما هو
معطى... وهو الكائن الوحيد الذي يبحث عن الغرض من وجوده
في الكون"^(١).

ولكن الملحد يريد أن يجعل الإنسان ذا بعد واحد فحسب؛
بحيث ينغلق على المادة والحس ويعترف بالظواهر فقط، ثم ما
دون ذلك لا يجب أن نأبه له!!

حقاً إن "هؤلاء الذين لا يتساءلون عن صدفة وجودهم،
يعانون من نقص عقلي"^(٢).

(١) الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان لـ د. عبد الوهاب المسيري (ص ١٢).

(٢) مقولة للفيلسوف (آرثر شوبنهاور) أوردها الفيلسوف الأمريكي (جون
هولت)، في حديث له على منصة (TED) بعنوان (لماذا الكون موجود؟)

وإن سلّمنا جدلاً بأن لا غاية من وجود الإنسان، فما الفرق بين وجوده وعدم وجوده في ظل عدم وجود غاية منه؟
الجواب الحتمي الذي يعترف به الملحدون أن لا فرق؛ لأنه مجرد صدفة فلا معنى لوجوده!!

يا للعجب! كيف يتصور الإنسان وجود ذاته بلا غاية مع أنه لا يتقبل وجود آلة من صنع البشر بلا غاية؟!
 بهذا الاعتقاد ستكون حياتنا بلا معنى ولا قيمة! وهذا ما وعاه رواد المدارس الفوضوية والعدمية والعبثية، فانتهوا إلى مذاهبهم تلك.

أضف إلى ذلك أن الإنسان بهذا الاعتقاد يفقد وعيه بذاته، ولا يفرق بينها وبين الآخر، وهذه معضلة من معضلات الملحدين المؤرقة، وهو ما يعترفون به، يقول أحدهم: "أعتقد أن فكرة أننا موجودون مجرد وهم، فكرة أن هناك (أنا) في الداخل تقوم باتخاذ القرارات والعمل وهي مسؤولة هو مجرد وهم كبير ضخم، الذات التي نبنيها مجرد وهم؛ لأنه في الحقيقة لا وجود إلا للدماغ وكيميائها وهذه الذات لا وجود لها، وهي لم توجد"^(١).

(١) نقلا عن: ميليشيا الإلحاد للشيخ عبد الله العجيري (ص ١٧٢).

فالأمر لن ينتهي عند إنكار وجود الله ﷻ، بل يرجع الإنسان بالشك في وجوده هو نفسه، فتأملها أيها الفطن اللبيب.

وخاصة القول: أن الإيمان بالله ﷻ يتواءم مع الشعور الفطري الكامن في داخل الإنسان بالغايبية، وأما إذا أنكر الإنسان وجود خالقه لم يجد غايةً من وجوده، ولا معنى لحياته، وظل في صراع مع فطرته، وتناقضٍ مع أخص أسئلته، وشكٍّ حتى في وجود نفسه!!^(١).



(١) إعداد: عمار بن محمد الأركاني.

النزعة الأخلاقية ووجود الله

من المعاني الكامنة في النفس البشرية شعورٌ فطريٌّ يجده الإنسان من نفسه يميّز به بين الخير والشرِّ، والحسن والقبح، وهو ما يسمّى بالنزعة الأخلاقية.

فمثلاً يُدرك الإنسان ضرورةً من نفسه أن العدل خيرٌ وحسنٌ، وكذلك الصدق خيرٌ وحسنٌ، وأنَّ عكسهما الظلم والكذب، فالإنسان يميّز بفطرته بين الخير والشرِّ، والعدل والظلم، والصدق والكذب، وبدون هذا يُعدُّ المرء من الأنعام لا من الأنام^(١).

ومما يدلُّنا على فطرية هذه النزعة الأخلاقية، أن النفس البشرية مفطورةٌ على حبِّ الكمال وكرهية النقص، وحقيقة الخير

(١) ينظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١١/ ٣٤٧)، مدراج السالكين لابن القيم (١/ ٢٣٠)، المعرفة في الإسلام للدكتور عبد الله القرني (ص: ٢٦٥)، سؤال الأخلاق لطفه عبد الرحمن (ص: ٥٣ - ٥٤)، وقد زعم الفلاسفة اليونانيون بأن فضائل الأخلاق محصورة في العلم والعفة والشجاعة والحلم والعدل، وناقشهم ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في مقولتهم تلك، وبين الحق منها والباطل، ينظر: الجواب الصحيح (٤/ ١٠٧ وما بعدها)، الرد على المنطقيين (ص ٤٥٤).

إنما هو الاتِّصافُ بِالْكَمَالِ؛ ولذا تُحِبُّهُ النُّفُوسُ، وَحَقِيقَةُ الْقُبْحِ
الِاتِّصافُ بِالنَّقْصِ؛ ولذا يَنْفِرُ مِنْهُ الْإِنْسَانُ فِطْرَةً^(١).

ثُمَّ إِنَّ مَجْرَدَ إِدْرَاكِ الْإِنْسَانِ الْحَقِّ وَالْكَمَالِ يَقْتَضِي اعْتِقَادَهُ
وَحَبَّهُ، وَمَجْرَدَ إِدْرَاكِ الْبَاطِلِ وَالنَّقْصِ يَقْتَضِي إِنْكَارَهُ وَكَرَاهِيَتَهُ،
وَلَا يَحْتَاجُ مَعَهَا الْإِنْسَانُ إِلَى اسْتِدْلَالٍ؛ ذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَوْ خَيْرٌ
بَيْنَ الصِّدْقِ وَالْكَذِبِ مَثَلًا، وَلَمْ يَتَرْتَّبْ عَلَيْهِ اخْتِيَارُهُ لِأَحَدِهِمَا
مُضِرَّةٌ اخْتَارَ الصِّدْقَ؛ لَوْجُودِ قُوَّةِ طَاقَةٍ فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ تَقْتَضِي
اعْتِقَادَ الْحَقِّ وَإِرَادَةَ النَّافِعِ بِمَجْرَدِ إِدْرَاكِهِمَا دُونَ اسْتِدْلَالٍ^(٢).

أَضْفُ إِلَى مَا سَبَقَ أَنَّ الْقَوْلَ بِفِطْرِيَةِ النَّزْعَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ هُوَ
مُقْتَضَى الصَّرُورَةِ النَّفْسِيَّةِ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَجِدُ مِنْ نَفْسِهِ ضَرُورَةَ
التَّفْرِيقِ بَيْنَ الْمُتَقَابِلَاتِ مِنَ الْأَخْلَاقِ؛ كَالْعَدْلِ وَالظُّلْمِ وَالصِّدْقِ
وَالْكَذِبِ، فَنَسْبُهُ هَذَا إِلَى فِطْرَةِ الْإِنْسَانِ كِنْسَبَةِ الْحُلُوِّ وَالْحَامِضِ
إِلَى ذَوْقِهِ وَرَائِحَةِ الْمَسْكِ وَالتَّنَنِ إِلَى شَمِّهِ^(٣).

وَإِذَا تَقَرَّرَتْ فِطْرِيَّةُ النَّزْعَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ، فَإِنَّ النَفْسَ الْبَشَرِيَّةَ
الْمَفْطُورَةَ عَلَى حُبِّ الاسْتِطْلَاعِ، تَتَطَلَّبُ فَاطِرًا لَهَا.

(١) ينظر: المعرفة في الإسلام للدكتور عبد الله القرني (ص: ٤٧١).

(٢) درء التعارض لابن تيمية (٤٥٦/٨)، وما ذكره رَحِمَهُ اللهُ مِنْ (قُوَّةِ فِي نَفْسِ
الْإِنْسَانِ...) هُوَ مَا يَسْمِيهِ فِلَاسِفَةُ الْأَخْلَاقِ (الْحَاسَةُ الْخَلْقِيَّةُ أَوْ الضَّمِيرُ)،
ينظر: المعرفة في الإسلام للدكتور عبد الله القرني (ص: ٢٧٥).

(٣) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (١/٢٣٠).

ولا تفسير أرسخ دلالةً وأقوى حجةً من أن فاطرها هو الله سبحانه الذي خلق النفس ﴿فَأَهْمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٨]، وألهمها التفریق بين الخير والشرّ والحسن والقبیح، وأرشدّها إلى السبيلين يختارُ منهما ما شاء؛ ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، فالبشرُ يعرفون الخيرَ ويطلبونه ويُتكرون القبیحَ ويزمُونه؛ والله سبحانه أرسلَ إليهم الرسولَ؛ ﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وهو سبحانه ﴿لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]؛ فهي قبائحٌ لا تستحسنها العقول^(١).

وكثيرًا ما ينبه ﷺ على هذه النزعة بصيغة الإنكار^(٢)؛ كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمُ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجنّة: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

(١) ينظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (١٦/ ٢٣٤) وأيضا (١٧/ ١٨١)، مفتاح دار السعادة لابن القيم (٢/ ٣٨٨)، مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٢٧٤)، محاسن التأويل للقاسمي (١٧/ ١٥٩)، تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٩/ ٢٢٧).

(٢) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٢٣٨-٢٣٧).

وقد أثبت النبي ﷺ هذه النزعة وتقبل الإنسان للخير واستنكاره للشر فطرةً فضلاً عن مجرد معرفته^(١)، فقال: «البرُّ حُسْنُ الخَلْقِ، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس»^(٢).

إذا أدركنا هذا، فهو يقودنا إلى مسألة أعمق تُعرِّفنا بفاطر السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ ﷻ، ألا وهي مسألة وجود القيم الأخلاقية المطلقة؛ حيث إنَّ الإنسان يُدرك ضرورةً من نفسه أنَّ لهذه النزعة الأخلاقية قيمَ موضوعيةً مطلقةً وعامةً لجميع البشر، وليست هي حسنة أو سيئة فقط بالنسبة إلى فردٍ أو جماعةٍ أو مجتمعٍ أو بلدٍ، بل هي كذلك مطلقاً عند كلِّ البشر، بل هي كذلك حتَّى مع تصوُّر عدم وجود البشر.

(١) ينظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب (ص: ٢٤٠)، الاعتصام للشاطبي (١٦١/٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٥٣)، وفي معناه عدَّةُ أحاديث منها: حديث وابصة أن النبي ﷺ قال: «استفت قلبك، البر ما اطمأن إليه القلب، واطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في القلب وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك». أخرجه أحمد (٢٢٧/٤)، وحديث: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة» أخرجه الترمذي (٢٥١٨) وصححه.

فالعدل مثلاً خيرٌ مطلقاً، وقيمةٌ أخلاقيةٌ حسنةٌ، وليس هو خيرٌ
لِحُكْمِ البشر عليها بالخيريةِ أو لتراضي الناس بها وتصلحهم على
سُلوِكها، بل في العدل قيمةٌ موضوعيةٌ مطلقةٌ نابعةٌ من ذاتها لا
بحكم أحدٍ عليها^(١).

ولعلَّ المقصودَ بالقيمِ المطلقةِ يتضحُ إذا تأملنا القصةَ التاليةَ:

في يومٍ من الأيام، بينما يمشي طفلٌ مع أمِّه، رأى قطعةً، فشدَّ
ذيلها بعنفٍ، فزجرته أمُّه عن ذلك.

فسألها: ولمَ؟

فقال: لأنه يؤذيها.

فقال: وما المشكلة في إيذائها؟

فقال: من الخطأ إيذاء حيوان بلا سبب.

فقال: لماذا هو خطأ؟

فليس للملحدِ جوابٌ هنا غيرَ أن يقولَ: هو خطأ وكفى؟!!

مع أنه كان من الممكن الإجابةً بأنه عدلٌ، والعدلُ له قيمةٌ
موضوعيةٌ مطلقةٌ، ولكنَّ الملحدَ لا يعترفُ بذلك؛ لأنه يقوِّضُ
فكره الإلحادي، بل يستمرُّ في عناده ومكابرتة^(٢).

(١) ينظر: الملل والنحل (٢/ ٩٩)، مجموع الفتاوى (٨/ ٤٣٥)، النظرية الخلقية

عند ابن تيمية لمحمد عبد الله عفيفي (ص: ١٢٩ - ١٣٠).

(٢) ينظر: شموع النهار لعبد الله العجيري (ص: ٥٧).

وهذه القيم الأخلاقية لا مناص عنها؛ إذ لا قيام لمجتمع بشري صالح بدونها؛ فإن قيام المجتمع يفتقر إلى قانون يحكم على تصرفات الناس بالحسن أو القبح، وإلا لو ترك كل إنسان ونزواته دون مراعاة الآخرين لتعدّر وجود مجتمع إنساني صالح؛ ولذا كان البشر على مرّ العصور لهم قوانين صارمة مبنية على هذه القيم الموضوعية، فموقف الإنسان من الكذب والخيانة والغش في القديم هو نفس موقفه اليوم وسيبقى كذلك، ولعلّ قوانين حمورابي الشهيرة شاهدة على ذلك^(١).

ووجود هذه القيم الأخلاقية الموضوعية دالة على مُوجدها سبحانه.

وفي ظلّ إنكار وجود الله تُعتبر هذه المسألة معضلة من أكبر المعضلات؛ ذلك أنّ البحث في القيم الموضوعية المطلقة بحث في أمور غيبية متعالية على التفسير المادي؛ ولذا لا مفرّ لهم من هذا المأزق إلا المجادلة ومحاولة إنكار وجود النزعة الأخلاقية والقيم المطلقة البديهية مكابرةً وعنادًا!!

(١) للاستزادة ينظر: كتاب شريعة حمورابي لمحمود الأمين، الموسوعة العربية

وهذا ما اعترف به داعية الإلحاد الشهير (ريتشارد دوكنز) بقوله: "ليست جميع الأحكام المطلقة مستمدة من الدين، ولكن من الصعب جدًا الدفاع عن القيم الأخلاقية المطلقة على أرضية أخرى غير الدين" (١).

وتعجب حين تسمع بعد هذا من يقول من الملحدين بأن هذه القيم نسبية؛ مما يفقدها قيمتها، ثم هو يناقض نفسه ويصرخ بشعارات الإنسانية والمطالبة بحقوقها بل وحقوق الحيوان، والتظاهر بإرادة الخير والصلاح للبشر!! والتساهل في نهب الآخرين بكونهم أشراراً؛ كوصف الإسلام بأنه أعظم قوى الشر!!

فهذه الظواهر في الحقيقة تكشف عمّا يجدونه ضرورة في نفوسهم وفطروا عليه من الإقرار بالقيم المطلقة (٢).

وإذا كانت القيم الأخلاقية نسبية وضعية، فهل ينصاع لها الإنسان وهو يعلم أنّها غير مقدّسة، بل هي من صنع بشر قاصرين مثله لهم ميول ورغبات ومصالح؟! بل كيف ينصاع لها وهو يعلم أنه لن يستفيد من التزامه بها شيئاً؛ إذ لا جزاء ولا عقاب!

(١) ينظر: وهم الإله لريتشارد دوكنز (ص: ٢٣٢) نقلاً عن: شموع النهار لعبد الله العجيري (ص: ٦٦).

(٢) عبّر عن هذا التناقض د. عبد الوهاب المسيري في كتابه العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة (١/ ١٨٩).

والقول بالنسبية مناقضة للعقل؛ لأنَّ أيَّ حُكْمٍ قيمِي (حَسَنٍ أو قبيح) على أمر ما، يمكن أن نحكم عليه بأنه لا صادق ولا كاذب، وهذا تناقض لا تقبله العقول!

ثمَّ هذا القولُ يُقوِّضُ التعليم والتربية من أساسها؛ لأنَّ المعلم يُعلِّمُ الخير والصحيح للأطفال ويربِّيهم عليه، فمن أين له أن هذا الذي يعلمه خيرٌ وحقٌّ مطلقاً؟!

ولو كانت نسبية ذاتية، فمن أين له الصَّلاحية ليلزم به غيره؟! وإن سلّمنا جدلاً بالنسبية لا يمكننا مناقشة أيِّ موضوع أخلاقي والحكم على أي شيء بالحسن والقبح؛ لأنَّ المسألة راجعة إلى الذوق الشخصي لا غير!!

فلو قبضت الشرطة على مجرم في جريمة سرقة، وادّعى هذا المجرم أنَّ السرقة ليست قبيحة بل حسنة بالنسبة له؛ لأنها تُدرُّ عليه الأموال، أليس لهذا المجرم الحقُّ فيما يقول؟!!

وهناك من يزعم بأنَّ مسألة الأخلاق ليست راجعة إلى القيم المطلقة، بل إلى كونها نافعة ومساهمة في عافية الإنسان فحسب، فيحاول إنكار القيم المطلقة بإضفاء مسحةٍ نفعيةٍ على الأخلاق!! ولكن على هذا القول، هل كلُّ ما يُسهم في عافية الإنسان يعتبر ممارسةً أخلاقيةً؟!!

ولو فرضنا إنساناً يستفيد من تدمير البشر واستنزاف الشعوب، فهل يكون ذلك خيراً؟!!

هل اغتصاب امرأة فعلٌ حسنٌ لمن يقضي وطره من ذلك؟^(١)
 لماذا تُخطئون من يمارس الفاحشة مع الأمهات والمحارم أو
 مع البهائم؟^(٢)

ما المانع من القول بأن هتلر كان على صواب في أفعاله
 الإجرامية؟^(٣)

بل ما الدافع إلى فعل الخير في الحياة على هذا القول؟^(٤)
 هذه التساؤلات وغيرها لا مفرّ للملحدين عنها، بل يعترفون
 بعجزهم عن الإجابة عليها.

(١) وقد سُئل (ريتشارد دوكنز) هذا السؤال في حواراته مع (جاستن بيرلي) حول
 الإلحاد، واعترف بأن الحكم بكونه شراً أمر اعتباطي لا تفسير له، وقد نقله
 عبد الله العجيري في شموع النهار (ص ٦٦).

(٢) وقد اعترف (لورنس كراوس) بعدم إمكانية الحكم على شناعة زنا المحارم
 وكونه خطأ في مناظرته مع (حمزة تزورتزس)، والتي كانت بعنوان (الإسلام
 أو الإلحاد، أيهما أكثر منطقية؟)، بل صرّح (بيتر سينغر) بأن ممارسة الفاحشة
 مع البهائم لا إشكال فيه؟! وقد ذكره عبد الله العجيري في شموع النهار
 (ص ٦٨).

(٣) ينظر: العقل الناضج لـ ه. أ. أفرستريت ترجمة: عبد العزيز القوصي (ص
 ٣٣)، وأيضا آثار الإشكال نفسه (ريتشارد دوكنز) كما نقله عبد الله العجيري
 في شموع النهار (ص ٦٦).

(٤) أورد هذه التساؤلات وغيرها أحد الباحثين في متدئ التوحيد وأورد معها
 الروابط على كل ما يذكر ينظر: فضائح إلحادية وأخلاق داروينية:

فإن نفي وجود القيم المطلقة يُفِضِي إلى الفوضى وعدم وجود هدفٍ من الحياة بما لا يستقيم معه أمور البشر، وهذا ما أدركه من تبني هذا الأمر والتزم بلوازمه، فانتهوا إلى الفوضوية والعدمية والعبثية.

ولا غرابة، فما قيمة إنسانٍ يعتقد أنه مجرد وسخ كيميائي موجودٍ على كوكب متوسط الحجم^(١).

معنى هذا أننا لن نستطيع القول بوجود خيرٍ موضوعيٍّ في الدنيا في ظلّ إنكار وجود الله!! فلا يمكن أن نكون خيرين صالحين في هذه الدنيا وفي المجتمع بدون الإقرار بوجود الله!!
فالسَّيَاحُ الأخلاقي هو الضامن الوحيد لموَدَّة الناس وتعاطفهم؛ فمتى وُجد دينٌ يحركُ الناس نحو الآخرة والآجل، رغبَ الناسُ عن العاجل وتلاشت الأحقاد والأضغان وصلح المجتمع، وإلا هيمن القلقُ على العالم، وفقد الوعي، وعجز المجتمع عن التمسُّك بمفاهيم العدالة كما تنبأ مؤرخو الغرب^(٢).

(١) هذا تعريف الفيلسوف (ستيفن هوكنج) للجنس البشري؟! وقد نقلته من كتاب شموع النهار لعبد الله العجيري (ص ٥٩).

(٢) وهذا ما ذكره (أرنولد توينبي)، نقلاً عن: الأسس النظرية لما بعد الحداثة لفخري صالح (ص ٧٤).

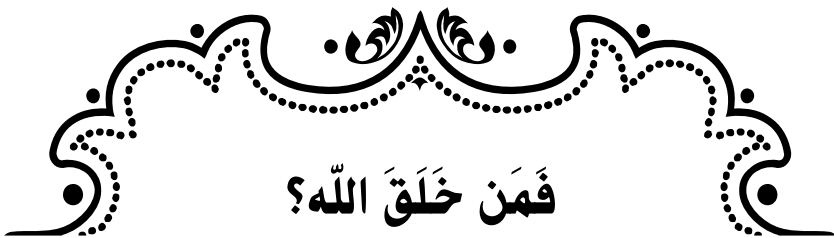
أخيراً أيها القارئ، نحن هنا بين خيارين ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾

[الإنسان: ٣]:

إما أن نُؤمن بالله تعالى ونُقرَّ بالفطرة التي منها النزعةُ
الأخلاقية والقيم المطلقة ونعيش حياةً هنيئةً، وإما أن نناقضَ
فطرنا ونجحدَ خالقنا ونعيشَ فوضىً وقلقاً ودماراً.
وصلّى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلّم^(١).



(١) إعداد: عمار بن محمد الأركاني.



فَمَنْ خَلَقَ اللَّهُ؟

مناقشة الشبهة الإلحادية

وإبراز كمال المعالجة الشرعية

يعتبر دليل الخلق والإيجاد باكورة أدلة وجود الله تعالى، بل أقواها عقلاً، وأظهرها وجوداً، وأيسرها فهمًا، وأقربها إلى الفطر، وأوسعها انتشارًا على مر التاريخ^(١).

ولما كان هذا الدليل بهذه المتانة والمكانة؛ صوّب الأبالسة إليه سهامهم، ووقفوا له بالمرصاد، ومن أهم تلك الأسهم التي أصيب بها أفئدة كثير في القديم والحديث، شبهة تقول: إذا كان لكل شيء خالق، فمن خلق الله؟

فهذا الاعتراض من أقدم الاعتراضات التي حررها الإسلام أبلغ تحرير، ومع كونه تليدًا عتيقًا إلا أنه في ذات الوقت حديث متجدد، بل من أوسع الاعتراضات انتشارًا على دليل الخلق والإيجاد في يوم الناس هذا.

(١) وللاستزادة ينظر: مقال الإبداع والاختراع ووجود الله الصادر عن مركز سلف للبحوث والدراسات.

وَمَنْ ابْتَلَىٰ بِهِذِهِ الشَّبَهَةَ الشَّيْطَانِيَةَ لَيْسَ عَلَىٰ حَالٍ وَاحِدَةٍ، بَلْ فِي الْأَمْرِ تَفْصِيلٌ سَيُظْهِرُ مَعْنَا بِإِذْنِ اللَّهِ.

وَلِهَذِهِ الْأَسْبَابِ مَجْتَمِعَةٌ، وَلِظَنَّ بَعْضَهُمْ أَنَّ الشَّرْعَ لَمْ يَعْالِجْ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ أَكْمَلَ عِلَاجٍ؛ كَانَتْ هَذِهِ الْوَرَقَةُ.

فَفِيهَا سَنَسْتَعْرِضُ هَذِهِ الشَّبَهَةَ وَمَرَاتِبَ مِنْ تَأْثَرِهَا، نَرُدُّهَا بِمُنَاقَشَتِهَا، وَكَشْفِ زَيْفِهَا، وَإِبْرَازِ مُنَاقَشَتِهَا لِأَدْلَةِ الْعِلْمِ التَّجْرِيْبِيِّ الْحَدِيثِ، مُعَقِّبِينَ ذَلِكَ بِبَيَانِ سَبْقِ الْإِسْلَامِ وَكَمَالِ مَعَالِجَتِهِ لِهَذِهِ الشَّبَهَةِ مَذْوَاقٍ مُبَكَّرٍ.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ الْإِحْلَاصَ وَالسَّدَادَ وَالْقَبُولَ وَالرَّشَادَ.



✽ قبل كل شيء:

إن كنت - يا رعاك الله - من الأنقياء الأتقياء المؤمنين بالأوّل الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء ﷺ، وخطر على فؤادك هذا الإشكال دون أن يستقرّ، فأبشر بفلاحك وصلاحك، فإن النبي ﷺ أخبر بأن هذه حيلة الشيطان مع مَنْ أيس من إغوائه وإضلاله لرقبته في مراتب الإيمان العليا؛ كما حصل مع صفوة الخلق وخيرة البشرية صحابة رسول الله ﷺ - ورضي عن صحابته - فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ، فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: «وقد وجدتموه؟» قالوا: نعم، قال: «ذاك صريح الإيمان»^(١)، وفي رواية: «تلك محض الإيمان»^(٢).

وأما عن علاج الشرع لها، فقد قال ﷺ: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته»^(٣). وفي رواية: «فليقل آمنت بالله»^(٤).

(١) صحيح مسلم (٢٠٩).

(٢) صحيح مسلم (٢١١).

(٣) صحيح البخاري (٣٢٧٦).

(٤) صحيح مسلم (٢١٢).

فدونك وصية النبي الذي ما ضلَّ وما غوى ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ ﴿٣﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [النجم: ٣، ٤]، فعُصَّ عليها بالنواجذ، مستعيذاً بالله من الشيطان الرجيم وخطراته، ومعرضاً عن وساوسه المناقضة لمنطق العقلاء، وأسئلته المتناقضة لدى الفضلاء، ومُجدداً إيمانك القائم على التسليم لرب الأرض والسماء، والمتفق مع أقوال الرسل والألباء، فإنَّ مَنْ عمَّر قلبه بالإيمان انخس عنه الشيطان.

وأما الانجرار وراء خطرات الشيطان فلا طائل تحته؛ فطريق الشكوك لا تنتهي له، ولا جدوى إلا بالانتهاة والوقوف كما أمرنا النبي ﷺ؛ فإن المرء إذا وصل غاية الغايات ونهاية النهايات وجب وقوفه وانتهاؤه؛ لأن من حصَّل نهاية مطلوبه فغاية مراده حينئذ أن ينتهي^(١).

هذا أفضل علاج وخير دواء لهذا الداء، وهذا القدر كافٍ لك أيها الفاضل إن كان هذا السؤال مجرد خاطرة^(٢).

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٣/ ٣١٤ - ٣١٥).

(٢) ولعلك تشاهد ردود عمالقة النقاش والرد على الشبهات في البرامج الجماهيرية من أمثال: أحمد ديدات وتلميذه ذاكر نايك، ينظر:

<https://www.youtube.com/watch?v=nAjTSJpHlhM>

https://www.youtube.com/watch?v=_o3GN85BBq8

<https://www.youtube.com/watch?v=qFizJ9aYkeA>

وأما إن كنت أيها القارئ العزيز ممَّن استقرت هذه الشبهة في نفسه، وعلقت في ذهنه، وأشغلت فكره، أو كنت ممَّن يُناقش هؤلاء سواءً كانوا يثيرونها أو فُتِنوا بها، فسنكمل معك باقي الطريق، لنناقش هذه الشبهة، ونكشف عوارها، ونبين بطلانها، بإذن الله تعالى^(١).



(١) هذا التفصيل في حال ومراتب من وردت عليه هذه الشبهة، قد فصَّله العلماء، ينظر: شرح النووي على مسلم (٢/ ١٥٥).

❖ منبع الشبهة وحقيقتها:

لا يحسن بنا ونحن نتحدث عن هذه الشبهة أن نُغفل الكلام عن منبعها ومنبتها، فهذه الشبهة في الحقيقة ليست سوى اعتراض على دليل الخلق والإيجاد الشهير الدالّ على وجود الله ﷻ، فبينما يستدل المؤمنون بحدوث الكون على وجود الله تعالى، بقولهم: إن الكون حادث، وكل حادثٍ فلا بد له من محدثٍ أزلي قديم، وذلكم هو الله^(١)؛ يوحى الشيطان إلى أوليائه بقوله: إذا كان كل شيء يحتاج إلى محدثٍ وخالق، فوجود الله أيضا يحتاج إلى محدثٍ وخالق، فمن خلق الله؟

بيد أن كثيرا ما يراد بمثل هذا الاعتراض في يومنا هذا مجرد الشغب والسجال ليس إلا^(٢).

ورغم كل ذلك فقد شكّلت هذه الشبهة عائقًا دون الإيمان بالله سبحانه لدى كثير؛ كالفيلسوف (هيوم) حيث يقول: "إذا كان لا بد لنا من البحث عن علّة لكل شيء، لوجب إذن أن نبحث عن علّة للإله نفسه"^(٣).

(١) وللاستزادة ينظر: مقال الإبداع والاختراع ووجود الله، في موقع مركز سلف للبحوث والدراسات.

(٢) وهذا ما بينه الشيخ عبد الله العجيري في كتابه شموع النهار (ص ١٥٠).

(٣) ينظر: قصة الفلسفة الحديثة، زكي نجيب محمود (ص ٢٤٤).

وعلى إثر (هيوم) تتابع كثير من الملاحدة في الافتتان به، يقول (برتراند رسل) وهو يتحدث عن علاقته بدليل الخلق والإيجاد: "كنت أعتقد صحة حجة المسبب الأول إلى أن قرأت في عمر الثامنة عشرة سيرة (جون ستوارت مل)، حيث وردت الجملة التالية: (علمني والذي أنه توجد إجابة عن السؤال: من خلقتني؟ لأن السؤال التالي سيكون: من خلق الرب؟!)، هذه الجملة القصيرة هي التي أوضحت لي مغالطة هذه الحجة، إذا كان لكل شيء سبب يجب أن يكون للرب سبب أيضا"^(١).

ومنهم أيضًا الفيلسوف (سبنسر) حيث يقول: "استمع إلى هذا الناسك المتدين، ها هو ذا يقصُّ عليك علّة الكون، وكيف نشأ، فخالق الكون عنده هو الله، ولكنه لم يفسّر بهذا الرأي من المشكلة شيئاً، ولم يزد على صاحبه (أي: المنكر للخالق) سوى أن أرجعها خطوة إلى الوراء.

وكأني بك تُسأله في سداجة الطفل: ومن أوجد الله؟"^(٢).

وكذلك (ستيفن هوكنج) و(ريتشارد داوكنز) الذي اعتمد عليه في جلّ كتابه الإلحادي (وهم الإله).

(١) لماذا لست مسيحياً؟ مجلة "أنا أفكر" (٦/٢١).

(٢) ينظر: قصة الفلسفة الحديثة، زكي نجيب محمود (ص ٤٧٧).

وراجت هذه الشبهة في السنة وأفئدة كثير، حيث تضخُّها أجهزة الإعلام بمختلف أساليبها ووسائلها، وتبثها في أوساط الشباب الحائر، فتأثّر بذلك بعضهم حتى استقرّت في النفوس، وهذا ما يحوجنا إلى كشف عوار هذه الشبهة، وبيان بطلانها.



✦ بطلان الشبهة وتناقضها:

لاحظ أخي القارئ هذه الأسئلة، ثم تفكّر هل لك أن تجيب عنها؟

✦ ما نوع الطفل الذي وُلد لأحمد في المستشفى البارحة، أهو ذكر أم أنثى؟

✦ من هي زوجة العازب؟

✦ كم لترًا يكون حرارة الطقس في هذا الوقت؟

هل تستطيع أن تجيب عن هذه الأسئلة، أم أنك تلاحظ فيها تناقضًا داخليًا لا يمكن مساييرته؟

لا شك أنك تلاحظ أن هذه الأسئلة تحمل في طياتها مغالطات منطقية تنقضها دون أن تحتاج إلى إجابة.

فكيف نتقل للبحث عن نوعية الطفل الذي وُلد لأحمد، ونحن نوقن أن السؤال مبني على خطأ، وهو: أن أحمد رجل، والرجل لا يلد؟!

أم كيف نبحث عن زوجة لرجل نحن موقنين أن لا زوجة له؟! بل كيف نبحث عن عدد لترات الحرارة، ونحن نوقن أن اللتر ليس مقياسًا للحرارة؟!

لا شك أنك تقرّ معي أن الحل هنا هو التوقف وردُّ هذا السؤال؛ لأنه سؤال لا معنى له ولا جواب؛ إذ ليس المقصود منه الجواب في الحقيقة وإنما مجرد السجال والجدال،

فالأفضل هنا أن نتوقّف ونوقِف السائل ونطلب منه ألاّ يسفّه عقولنا ويخاطبنا بتلك المغالطات.

إذا أيقنت بهذا، فإن سؤال "من خلق الله" من جنس هذه الأسئلة، فهي في حقيقتها تقول: من خلق الذي هو غير مخلوق؟! أو ما بداية الذي لا بداية له!؟

وكيف نبحث عن خالق الذي لم يُخلق ولا خالق له، أو بداية الذي لا بداية له ﷺ، وهل كان الله في يومٍ من الأيام معدوماً حتى يُبتدأ وجوده، حاشاه سبحانه.

كيف تكون له بداية وهو الأول المتصف بالأولية المطلقة؟! فليس قبله شيء سبحانه، وأيضا هو الآخر فليس بعده شيء^(١)، فالله ﷻ لا بداية له ولا نهاية، وإنما ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]، فوجوده أزلي قديم لم يكن في وجوده مفتقراً إلى غيره ﷻ، بل وجوده الوجود الواجب الذي يحتاج إليه غيره، لا كوجود المخلوق الممكن الوجود.

وأما حيرة بعض العقول أمام تصوّر موجود أزلي لا أوّل لوجوده فذلك لا يستلزم عدم وجوده؛ ومتى كان عدم العلم بالشيء علماً بعدمه!؟

(١) ينظر: صحيح مسلم (٢٧١٣).

وهذا السؤال وهذا الاعتراض في حقيقة الأمر يكشف عن سوء فهم وخلط بين ما يستدل به المؤمنون من الوجود الحادث الممكن واستلزامه للوجود الواجب، وبين معنى الوجود مطلقاً، وشتان بينهما، فالمؤمنون في دليلهم ينصُّون على أن كل مُحَدَّثٍ لا بد له من سبب ومن خالقٍ مُحَدَّثٍ أو جده، بعكس ما يدعيه هؤلاء الملاحدة بأنهم يقولون إن كل موجود لا بدَّ له من سبب، فهم لا يقولون هذا، وإنما يقولون إن الوجود الممكن - فقط وليس كل موجود - لا بد له من سبب وموجود واجبٍ أحدثه.

واستلزام الوجود الحادث الممكن للوجود الواجب ليس مجرد افتراض اعتباطي يفترضه المؤمنون بالله تعالى^(١)، وإنما هي مسألة ضرورية عقلية بديهية، فوجود خالقٍ ومحدثٍ أوليٍّ وجوده من نفسه متصف بالوجود الواجب^(٢) ضروري، وقد تتساءل كيف ذلك؟

مُنطلق المؤمنين إلى ذلك ما يرونه من وجود المحدثات في الكون بعد عدم، فإن هذه الموجودات المحدثّة تستلزم بالضرورة العقلية مُوجِداً أزليّاً قديماً لا يسبقه عدم؛ لأنه يستحيل أن يكون موجد حادثاً، ثم موجد ذلك الحادث حادثٌ آخر إلى ما لا نهاية،

(١) والعجيب أن كثيراً من (دعاة الإلحاد الجديد) ينسب هذا إلى المؤمنين وإلى دليل الخلق والإيجاد، ينظر: وهم الإله لـ (ريتشارد دوكنز) (ص ٧٧).

(٢) هذا وصف لوجود الله ﷻ، ولا يعتبر اسماً من أسمائه تعالى؛ فإنه لم يخبرنا أنه سمّي نفسه ﷻ بذلك، ولا أخبرنا بذلك رسوله ﷺ.

بل لا بد أن تنتهي هذه السلسلة إلى مُوجد قديم وجوده واجب^(١). ولو افترضنا ذلك بحيث يكون لكل موجود حادثٍ مُوجدٌ حادثٌ مثله، وهكذا إلى ما لا نهاية، فمع أن هذا اللاتناهي لا وجود له واقعيًّا كما يعترف بذلك علماء الرياضيات والفلاسفة^(٢)، فإن التسليم به يستلزم أن لا خالقٌ للكون ولا وجود له، وهو ممتنع ومناقضٌ للمعارف الحسية الضرورية.

إذن تسلسل الفاعلين إلى ما لا نهاية ممتنع؛ بل لا بد أن تصل سلسلة الفاعلين إلى علة غير معلولة، وإلى سبب نهائيٍ تنتهي إليه الأسباب، وهذه النهاية هي إلى الله ﷻ كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢].

ولعلنا نجلي لك الأمر بهذا المثال: لو قال لك المحاسب الذي يصرف الرواتب: لن أسلمك الراتب حتى يوافق سالم، ولن يوافق سالم حتى يوافق سامي، ولن يوافق سامي حتى يوافق سامر، ولن يوافق سامر حتى يوافق سلمان... وهكذا إلى ما لا نهاية، فلن تستلم الراتب أبدًا ولن يحصل الأثر.

(١) وممن استدل بهذا في الغرب اليوم (ويليام لين كريغ)، واستدل له على وجود الله ضد الملاحدة، وفي ذلك ألف كتابه (الدليل الكلامي الكوسمولوجي)، وقد ناقشه د. سامي عامري في آخر كتابه (فمن خلق الله) (ص ١٨٧).

(٢) من أمثال (ديفيد هيوم) و(ديفيد هلبرت)، ينظر: فمن خلق الله لـ د. سامي عامري (ص ٦٨).

مثال آخر: لو افترضنا أن مجرمًا حُكِمَ عليه بالقتل، فقال الجندي: لا يمكن أن أضرب عنقه حتى يأمرني من هو أعلى مني رتبة، وقال من فوِّقه: لا أفعل ذلك حتى يأمرني من هو أعلى مني رتبة، فإما أن تنتهي إلى قائد يأمر بالقتل وإلا لم يقع الفعل، ومثل هذا في كوننا ووجودنا إن لم يكن له بداية فلن يكون له وجود.

ومن الشواهد على امتناع هذا التسلسل: استحالة عبور اللامتناهي، ومعنى ذلك أننا إن لم نبدأ من نقطة معينة ولحظة ثابتة، فإننا لن نستطيع تصوُّر الآن واليوم وأمس والعام الماضي والعام القادم، وهذا مناقض للواقع المحسوس في حياتنا؛ وقد لخصه الجويني في عبارة مختصرة بقوله: "ما يتسلسل لا يتحصَّل" (١).

وفي هذا يقول د. عبد الرحمن حبنكة: "فمن الضرورات العقلية، أو الحتميات العقلية، أن يكون وجود موجودٍ ما هو الأصل، لا العدم الكلي العام الشامل لكل ما يخطر في الفكر وجوده.

وذلك لأنه لو كان العدم الكلي الشامل لكل ما يخطر في الفكر وجوده هو الأصل، لاستحال عقلاً وواقعاً أن يتحول العدم بنفسه إلى الوجود.

(١) العقيدة النظامية للجويني (ص ٢٠).

وإذا استحال أحد النقيضين كان النقيض الآخر واجب الوجود عقلاً.

إذن فقد وجب بالضرورة العقلية أو بالحمية العقلية، أن يكون الوجود لموجودٍ ما، هو الأصل.

وما كان وجوده هو الأصل عقلاً، فإنه لا يحتاج تفسيراً ولا تعليلاً، ولا يتطلب سبباً.

هذه الضرورة العقلية، أو الحمية العقلية، تثبت عقلاً بدليل استحالة نقيضها عقلاً^(١).

وهذه المسألة هي التي تُسمَّى عند أهل العلم باستحالة التسلسل في الفاعلين المؤثرين، وهي من الأدلة القوية التي اعترف الملاحدة بعجزهم عن ردها^(٢).

والفضل في بناء هذا الرد القوي ونشأة أصله دليل الخلق والإيجاد يرجع إلى علماء المسلمين بحمد الله تعالى كما يعترف بذلك من يتناوله من الغربيين أنفسهم^(٣).

(١) كواشف زيوف (ص ٥٢٧ - ٥٢٨).

(٢) ينظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم (١/٣٦)، تهافت الفلاسفة لأبي حامد الغزالي (ص ٩٩ وما بعدها)، الكشف عن مناهج الأدلة لابن رشد (ص ١١٩)، درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٣/١٤٩)، ولتوضيح أكثر شاهد المقطع التالي:

<https://www.youtube.com/watch?v=e99el1gavJs>

(٣) ينظر: الدليل الكلامي الكوسمولوجي لـ (ويليام لين كريغ) (ص ١٧).

ويمكننا تلخيصه في هذه العبارات المختصرة:

١. كل ما في كوننا ممكن الوجود، ولا يمتنع عقلاً ألا يوجد.
٢. كل شيء وجوده ممكن، فهو محتاج إلى علة ترجح وجوده على عدمه.
٣. لا يمكن لسلسلة العلل والآثار أن تستمر في الماضي إلى ما لا نهاية.
٤. لا بد لهذه السلسلة أن تنتهي عند (من/ ما) لا علة لوجوده.
٥. تنتهي السلسلة عند الأول الذي يفسر وجوده بطبيعة امتناع عدمه عقلاً، وهو: واجب الوجود^(١).

وهذا الاستدلال العقلي الرصين كما ترى ليس هو إرجاع للمسألة خطوة إلى الوراء اعتباطاً هكذا كما يفترضه الملاحدة، إذ لم يقرّر المؤمنون أن الكون له سبب، وأن الله لا يحتاج إلى مثل ذلك السبب بمجرد التحكم الاعتباطي أو الافتراض الشخصي، وإنما بالضرورة العقلية البديهية.

فنحن عندما وجدنا الكون أماننا كان التساؤل العقلي المنطقي من خلق الكون؟ فهو سؤال منطقي؛ لأن الكون حادث بعد عدم ومحتاج إلى خلق، لكن من غير المنطقي أن نسأل: من خلق الله؟ لأن الخالق لا يحتاج إلى خلق.

(١) فمن خلق الله لـد. سامي عامري (ص ٨١).

مثلاً: إذا دخلت إلى غرفة رأيت فيها كتاباً موضوعاً على الكرسي ورجلاً جالساً على الأرض، ثم خرجت وعُدت، فوجدت الكتاب على الطاولة، والرجل على أريكة، فسؤالك المنطقي هنا من وضع الكتاب على الطاولة؟ ومن غير المنطقي أن تسأل من وضع الرجل على الأريكة؟ لماذا؟

لأن الكتاب ليس له القدرة على الحركة من تلقاء نفسه أما الرجل فله القدرة الكاملة على الحركة والتنقل.

وهذا السؤال - سؤال من خلق الله - في الحقيقة ينمُّ عن خلط وخبط عقلي عشوائي؛ فبعد أن تُقرَّر وتُثبت بالأدلة والحجج والبراهين أن وجود الله ﷻ الخالق الأزلي لا سبب له ولا بداية له، يأتي ويسألك ما سبب وجود الله وكيف كانت بدايته ومن خلقه؟!!!

وكيف لنا أن نبحث عن بداية لمن لا بداية له، بل هو خارجٌ عن نطاق الزمان والمكان، بل الزمن ذاته لا يعدو أن يكون مخلوقاً من مخلوقاته، فالله لا يخضع للقوانين التي تخضع لها المخلوقات وكيف يخضع لتلك القوانين وهو واضع القانون أساساً، سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]؛ ولذا لا يصح في حقه سبحانه قياس التمثيل ولا قياس الشمول بل قياس الأولي.

وبالمثال يتضح المقال - ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ -: صانع السيارة مثلاً لا يمكن أن يكون مشابهاً للسيارة في شكلها والمادة المصنوعة منها ولا قوانينها، فالقوانين الفيزيائية التي تنطبق على السيارة لا تنطبق على صانعها، مع أنه لا يمكن للسيارة أن تكون موجودة لو لا هذا الإنسان الذي صنعها.

والقوانين التي تحكمنا نحن في الزمان والمكان لا يمكن أن تنطبق على خالق الزمان والمكان ﷺ؛ فإن الزمان لو تأملنا فيه فليس هو سوى أثر لحركة الأفلاك والأجرام، فهو ليس شيئاً قائماً بذاته، وإنما أثر من آثار خلق الله تعالى^(١).

وبهذا يقرُّ أرباب العلم التجريبي اليوم حتى الملاحدة منهم على عكس ما كان يدعوناه قبل، فقد كانوا لا ينفكُّون عن الاعتراض على دليل الخلق والإيجاد بدعوى أزلية العالم والمادة والزمان، ولكن كثيراً من المكتشفات العلمية الحديثة لم تقف في صفِّهم، بل نقضت دعاوهم تلك ودفعتهم إلى التسليم بأن العالم والزمان خلوقان حادثان وُجدا بعد أن لم يكن، وفي هذا يقول (ستيفن هوكنج): "ومع تراكم الدليل التجريبي والنظري أصبح من الواضح أكثر وأكثر أن الكون لا بد له من بداية في الزمان، حتى تمت البرهنة على ذلك نهائياً في ١٩٧٠م"^(٢).

(١) ينظر: معيار العلم في فن المنطق للغزالي (ص: ٣١٨)، مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢/ ٤٩٢).

(٢) تاريخ موجز للزمان لـ (ستيفن هوكنج) (ص٧)، وينظر أيضاً: =

ويقول العالم الفيزيائي المعاصر (بول ديفيز): "أهم اكتشاف علمي في عصرنا هذا هو أن الكون المادي لم يكن موجودًا أبدًا"^(١).

وهذا التراجع عن القول بأزلية الكون كما أسلفنا يرجع إلى كثير من الاكتشافات والنظريات العلمية الحديثة، والتي من أهمها:

◆ اكتشاف قانون الديناميكا الحراري الثاني، وملخصه: أن الطاقة الحرارية لا تنتقل إلا من الأجسام الحارة إلى الأجسام الأقل منها حرارة، ولا يمكن أن يحصل العكس، مما يعني أن الطاقة في الكون لا تسير إلا في اتجاه واحد فقط، وهو الانتقال من الأعلى إلى الأقل حرارة، وبالتالي فالكون يفقد طاقته ويسير من النظام إلى الفوضى ومن الحرارة إلى البرودة^(٢).

فإذا كان الكون كذلك فإنه سينتهي يومًا ما، وما له نهاية فلا بد له من بداية.

= نظرة علمية لـ(برتراند رسل) (ص ١٠٧-١٠٩)، الله يتجلى في عصر العلم لمجموعة من الباحثين (ص ١٢)، وأيضاً (ص ٩١)، والإسلام يتحدى لمؤلفه وحيد الدين خان (ص ٥٥).

(١) القوى الأربع الأساسية في الكون لـ(بول ديفيز) (ص ١٧)، وانظر: الله يتجلى في عصر العلم لمجموعة من الباحثين (ص ٣١).

(٢) ينظر: أساسيات الفيزياء لـ(بوش) (ص ٣٢٧-٣٤٤).

◆ صعود نجم نظرية الانفجار العظيم، وخلاصة هذه النظرية: أن كوننا بدأ بانفجار عظيم حدث قبل بلايين السنين من لا شيء، ومن حين هذا الانفجار بدأ الزمان والمكان، وهذا ما يعتقدُه عامة الفلكيين اليوم، وهو ما أثار على تبني القول بحدوث المادة وعدم أزلتها^(١).

وقد استدل العلماء على صحّة النظرية بشواهد كثيرة أوصلها عالم الفيزياء الفلكية (هيوروس) إلى ثلاثين دليلاً، وقد استعرضها د. سامي عامري في كتابه (فمن خلق الله)، ومن أهمها:

◆ وجود إشعاع الخلفية الكونية وحرارته.

◆ نسبة الفوتونات مقارنة بالبريونات في الكون.

◆ معدل التوسع الكوني.

◆ المدارات المستقرة للنجوم والكواكب.

◆ وجود الحياة والإنسان.

◆ وفرة الهيليوم في الكون.

◆ الأعمار النجمية.

◆ أعمار المجرات.

◆ صور تاريخ الكون.

(١) ينظر: القوي الأربعة الأساسية في الكون لـ(بول ديفيز) (ص ٢٠)، التصميم العظيم لـ(ستيفن هوكنج) (ص ١٥٢ وما بعدها)، الدقائق الثلاث الأولى من عمر الكون لـ(ستيفن واينبرج) (ص ١٢).

وغيرها من الشواهد العلمية التي آيدت هذه النظرية وأعطتها السيادة في أوساط العلم الحديث اليوم^(١).
ويصوّر لنا رئيس علماء وكالة ناسا^(٢) خيبة أمل الملحدين في ذلك بقوله: "تنتهي القصة بالنسبة للعالم الذي عاش بإيمانه بقوة العقل كمنام سيء، لقد تسلق جبال الجهل، ويكاد يقهر أعلى قمة، وبينما هو يرفع نفسه إلى الصخرة الأخيرة، يفاجأ بتهنئة من جَمْع من اللاهوتيين الجالسين هناك منذ قرون".

فهذه النظرية وشواهدا كانت صادمة ومزعجة لكثير من الملحدين، كما يقول (أنتوني فلو): "عندما التقيت لأول مرة - كفيلسوف ملحد - بنظرية الانفجار العظيم الكوني التي تصدت لتفسير وجود الكون، أدركت أنني أواجه نظرية مختلفة، نظرية تتماشى مع ما يطرحه سفر التكوين، وإذا كان الأمر كذلك، فلم يعد هناك مفر من البحث عن أحدث هذه البداية"^(٣).

فلم يجدوا بُدًّا سوى أن يتنكروا لهذه النتائج التي توصل إليها العلم الحديث الذي طالما تبجّحوا باتّباعهم له وسيرهم معه أينما سار، فلما كان الأمر موافقًا لما عليه الدين تنكروا له محاولين تجاوز دلائله و يقينياته، وما زالوا حتى اليوم يمارسون هذه المغالطة،

(١) ينظر: فمن خلق الله لد. سامي عامري (ص ٨٩).

(٢) هو (روبرت جسترو) اللا أدري في ختام كتابه (الله والفلكيون) (ص ١١٦).

(٣) ينظر: رحلة عقل لعمر و شريف (ص ٨٠).

وهذا ما نقرأه في مقال نشر في مجلة (new Scientist) التي يسيطر عليها الماديون في عام ٢٠١٢م: "اعتقد علماء الكوسمولوجيا أن عليهم الالتفات وراء المشكلة، لقد حاولوا على مرّ السنوات الماضية إثبات عدة نماذج مختلفة للكون تتفادى الحاجة إلى بداية، مع الاستمرار في اشتراط انفجار عظيم، يبدو الآن من المؤكد أن الكون كانت له بداية"^(١).

ويوضح لنا (جاسترو) عمق الانغلاق العقلي الذي يمارسه هؤلاء حيث يقول: "إنهم يؤمنون أنهم بشيء من الوقت والمال بإمكانهم الوصول إلى حلّ علمي لبداية الكون يوافق عقليتهم المادية ويلغي كل تفسير خارق... إن الانفجار العظيم قد مسح كل أثر من الممكن الاستدلال به على غير ما نشهده اليوم"^(٢) والفيلم الشهير (مطرودون) يحكي واقع هذا الانغلاق^(٣).

إلى هنا قد تبين لنا تناقض هذا السؤال في بُنيته، ومغالطاته المنطقية، ومصادمته لمكتشفات العلم الحديث، وتماسك دليل الخلق والإيجاد في مقدماته ومكوناته، فإذا كان كذلك، فلننظر هل تضمّن الشرع هذه الحجة وهذا البرهان؟ أم اكتفى بمجرد المنع من الخوض في هذا السؤال كما يظن كثير؟

(١) نقلا عن: (فمن خلق الله) ل.د. سامي عامري (ص ٩٩).

(٢) رسالة من البروفيسور (جاسترو) نقلا عن: (فمن خلق الله) ل.د. سامي عامري (ص ١٢٢).

❁ كمال المعالجة الشرعية لهذه الشبهة:

سبق أن ذكرنا أوّل هذه الورقة أن الشرع أمرنا بالاستعاذة بالله تعالى والتوقف عن مثل هذا السؤال، وعزانا إلى الإيمان الكامن في نفوسنا بالله ﷻ، ولكن هناك مَنْ فهم أن الشرع لم يعالج المسألة علاجاً كاملاً، وإنما اكتفى بإبعاد المسلم عنها دون نقد بُنية الشبهة وأصلها، وقد غلطوا فيما ظنّوا، ففي كتاب الله وسنته الخير والهدى، وهما المحجة البيضاء التي لا يزيغ عنها إلا هالك، ولكن كيف ذلك؟

أخبرنا النبي ﷺ أن هذه شبهة شيطانية يوسوس بها الشيطان على أفئدة الناس، حيث يقول: «يأتي الشيطانُ أحدكم فيقول: من خلق كذا وكذا وكذا؟ حتى يقول له: من خلق ربك؟...»^(١).

وفي رواية: «يأتي العبدَ الشيطانُ فيقول: من خلق كذا وكذا؟...»^(٢).

وما كان الله ليذر المؤمنين دون أن يُميّز لهم خبث هذه الوسوسة الشيطانية، ويبين لهم العلاج النافع والسلوك الأقوم معها.

(١) صحيح البخاري (٣٢٧٦).

(٢) صحيح مسلم (٢١٤).

فقد دلنا الشرع على المنهج والقاعدة العامّة التي ينبغي أن تُسلك مع مثل هذه الوسواس والفسطاط؛ إذ الإحاطة بكلّ وسواس يرد على نفوس المؤمنين عزيز لا حصر له، فلا يمكن حصره في قول بل في كتب وأسفار.

فكان الأصلاح هو وضع قاعدة للتعامل مع مثل هذه الخطرات والوسواس السوفسطائية، وهو ما سبق الشرع إليه.

وذلك أن المبادئ الأولية الضرورية كامنة في النفس البشرية، وبدئية في الفطر السوية، ولكن الفطرة قد تمرض وتفسد فترى البدهي نظرياً والحق باطلاً، وتقبل تلك الوسواس والخطرات المغالطة، وحينئذ نحتاج إلى علاج لهذا المرض، فما هو العلاج المُجدي في مثل هذا المرض؟

العلاج الأكمل لمن فسدت فطرته وشكّ في المقدمات العقلية البدهية أن ينتهي عن تلك الوسواس، وأن يُذكر بأصالة هذه المبادئ الفطرية في نفسه، ولا يمكن معالجة هذا المرض بالأدلة العقلية والبرهانية؛ لأن الأدلة العقلية مستندة على تلك المقدمات الفطرية، فكيف يُستدل بالأدلة العقلية على البدائه الفطرية التي هي مستندة عليها؟^(١).

(١) وللاستزادة عن المقدمات الأولية ينظر: مقال دلالة المقدمات الضرورية على وجود الله في موقع مركز سلف للبحوث والدراسات:

فمن شكَّ في المقدمات الأولية الفطرية انقطع عنه طرق الاستدلال والبرهنة، ولزم علاج هذه المشكلة فيه قبل الانتقال إلى ما بعدها؛ لأن من ينكر العلوم الحسية والضرورية - كالعلم بأن الواحد نصف الاثنين - لا سبيل إلى مناظرته أو الاستدلال عليه بالبراهين، بل إذا كان جاحداً معانداً عوقب حتى يعترف بالحق، وإن كان غالباً فإنه يعالج بما يوجب حصول شروط العلم له وانتفاء موانعه، فإن عجز عن ذلك لفسادٍ في طبيعته عولج بالأدوية الطبيعية أو بالدعاء والرُّقى ونحو ذلك وإلا تُرك.

إذن الوسواس السوفسطائي القادح في المقدمات الأولية لا يُعالج بالاستدلال والبراهين، وإنما بالتذكير والتنبيه على فطرية تلك المبادئ.

ولما كان سؤال (من خلق الله؟) من جنس هذه الوسواس السوفسطائية، نجد هذا العلاج جلياً في تعامل النبي ﷺ مع الوسواس السوفسطائي الذي ناقشه في هذه الورقة، فقد علم ﷺ أن وسواس التسلسل في الفاعل يقع في النفوس؛ ولأن العلاج الأنفع مع أمثالها هو قطع هذه الوسواس والرجوع إلى المبادئ الأولية أمر بالانتهاء، والاستعاذة بالله منها، والاستناد إلى الأدلة الفطرية، واستحضار الإيمان بالله والشواهد القطعية الدالة عليه، وقطع الوسواس العارض بطود الإيمان الشامخ.

وهكذا نجد النبي ﷺ لخصها في قوله: «فليستعدُّ بالله وليتته»^(١)، وقوله: «فليقل: آمنت بالله»^(٢).

إذن النبي ﷺ أمرنا حيال هذا الوسواس بثلاثة أمور:

١- الاستعاذة.

٢- الانتهاء.

٣- الإيمان.

وسنفضّل لك القول في كل واحدة من هذه:

١- الاستعاذة.

من غلبه وسواس التسلسل حتى عجز عن دفعه عن نفسه، فهذا علاجه الاستعاذة بالله منها؛ فإن الله هو الذي يعيد الإنسان ويجيره من الشبهات المضلة والشهوات المغوية؛ ولهذا أمر العبد أن يستهدي ربه في كل صلاة، فيقول: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝١﴾
 ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧﴾
 [الفاتحة: ٦، ٧]، ويتردد عنه وسواس الشيطان ونزغاته بالاستعاذة كما قال تعالى: ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

(١) صحيح البخاري (٣٢٧٦).

(٢) صحيح مسلم (٢١٢).

وامتدح الله المؤمنين المتقين بأنهم ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَافٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ [الأعراف: ٢٠١]، إلى غيرها من النصوص الكثيرة في الاستعاذة بالله العظيم.

والواقع أن كلَّ إنسان يعرف من نفسه كثرةً تقلب قلبه من الخواطر، سواء في جانب الشبهات أو جانب الشهوات، والله هو القادر على صرف ذلك عنه.

فالاستعاذة بالله إذن علاج قويم وناجع مُفضٍ إلى المقصود. ولكن النبي ﷺ لم يكتف بتلك الوصفة العلاجية لهذا المرض، بل أَرَدَها بالانتهاء عن منبت المرض وأصله.

٢- الانتهاء.

سبق أن قلنا إن فساد هذه الشبهة معلوم بالبداهة العقلية الضرورية؛ فإن العاقل يعلم خطأ سؤال من يسأل: من خَلَقَ الذي لم يُخَلَقْ؟

لأنه سؤال يتضمن مغالطة منطقية ويفضي إلى التسلسل الممتنع ببداهة العقول، فالعلاج الأمثل معه هو الانتهاء.

ولذا أمر به النبي ﷺ، فالانتهاء وإيقاف وسواس الشيطان وخطراته المفسدة لفطرة الإنسان وعقله هو من العلاجات الشرعية، وهو علاج ناجعٌ، بل الأنجع لهذه الشبهة؛ لأن هذا الوسواس ليس من جنس الوسواس الأولية التي تُعالج بما بعدها،

بل هو نهاية الوسواس التي لا تُزال إلا بالانتهاء؛ فإن النفس البشرية والفطرة السوية تطلب سبب كل شيء حتى تنتهي إلى الغاية والنهاية التي لا شيء وراءها، فإن وصلت إلى غاية المطالب ونهاية المآرب وجب عليها أن تقف.

والله ﷻ إليه المنتهى كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ ﴿٤٢﴾ [النجم: ٤٢]، فهو سبحانه منتهى الغيات^(١) التي لا غاية دونه سبحانه، ومن طلب غايةً بعده سبحانه وجب أن يقف وأن ينتهي، ويستجير بالله من وسواس التسلسل الممتنع ببداهة العقول. وهكذا وصف النبي ﷺ الاستعاذة علاجاً لهذا للمرض، وأمر بالانتهاء وإيقاف أصل المرض ومنبعه، ثم أوجد البديل النافع لذلك المرض، ألا وهو الإيمان.

٣- الإيمان.

أمر النبي ﷺ بعلاج هذا الوسواس ودفعه بالإيمان، وقول: «آمنت بالله»^(٢)؛ لأن العلاج الأصلح للسفسطة هو التنبيه والتذكير بالبداية والمقدمات العقلية لعلها تستيقظ من سباتها، فإن اعظ

(١) هذا من باب الوصف وليس هو اسماً لله ﷻ، كما هي القاعدة المعروفة عند أهل السنة والجماعة.

(٢) سبق تخريجه.

ورجع إلى فطرته علم فساد هذه الشبهة، وذهبت عنه الوسواس .
 فإن وسواس الشيطان لا يمكن أن تجتمع في قلبٍ معمرٍ
 بالإيمان؛ لأن الشيطان يخنس عند ذكر الله؛ ولذا سُمِّي الوسواس
 الخناس، كما في قوله تعالى: ﴿ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾^٤
 الَّذِي يُوسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ [الناس: ٤، ٥]، والخنوس
 الاختفاء بنوع من الانخفاض والذل له، فعند ذكر الله تعالى يذلُّ
 الشيطان ويخضع ويختفي، ولكن إذا غفل العبد عن ذكر الله
 وسوس له.

فأمر النبي ﷺ العبد أن يقول: «آمنت بالله»؛ فإن هذا القول
 إيمان، وذكرُ الله يُدفع به ما يضاذه من الوسوسة القادحة في العلوم
 الضرورية الفطرية.

وإليك هذا المثل لتتضح المسألة:

قد يوسوس الشيطان إلى المسلم ويشككه في علومه الحسية
 الضرورية، مثلا: هل غسل وجهه في وضوئه أم لا؟
 فهذا علاجه بأن يقول: بلى قد غسلت وجهي، فيثبت على
 الحق ويدفع ما يعارضه من الوسواس، فيرى الشيطان قوته وثباته
 على الحق، فيندفع عنه.
 فيزول الوسواس بالاستعاذة وانتهاء الإنسان عنه، وقول: بلى
 قد غسلت وجهي.

وهكذا في الشبهة التي ناقشناها في الورقة: إذا وسوس له الشيطان وقال: إذا آمنت بأن الله خالق الكون وسببه، فمن خلق الله؟

فيقول: آمنت بالله ويزيل هذه الوسوسة عن نفسه^(١).



(١) ينظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٣/ ٣٠٧ وما بعدها).

✽ الخاتمة:

في ختام هذه الورقة، قد تبين لنا أن هذا الإشكال الإلحادي (فمن خلق الله؟) ليس في ذاته ما يقيمه، بل هو متناقض من داخله، وأن الأدلة العقلية والشواهد العلمية الحديثة كلها تردُّه، وتُضح لنا أن الشرع قد بيّن السلوك الأمثل مع هذه الشبهة.

فالأنفع لكل من وجد شيئاً من هذه الوسوس، أو أُلقي إليه شيء منها ألا يتمادى فيها بل ينكرها من أعماق قلبه، ويستعيد بالله منها، ويتذكّر أن إيمانه يستند على أدلّة وبراهين كثيرة متضافرة قطعية لا شك فيها، ويقول: آمنت بالله كما أمر الرسول ﷺ، وأن لا يتمادى مع الخائضين في الشكوك والسفسطة؛ لأن تلك الخطرات والشكوك لا تنتهي لها^(١).

(١) إعداد: عمار بن محمد الأركاني.

قصور العلم التجريبي

السعي الإنساني وراء الأسئلة الوجودية الكبرى من أجل الوصول إلى معرفة حقيقة وجوده سعي فطري ضروري لطبيعته الباحثة عن الغايات، بل هو أخص خصائص الإنسانية، فهو دائما يبحث عن إجابات لأسئلته تلك؛ لماذا نحن هنا؟ من أين جئنا؟ وما مصيرنا؟ لكن؟

لكن يدعي البعض أن "العلم التجريبي هو الوسيلة الوحيدة لتكوين هذه الحقائق"، وهذا الادعاء = يناقض نفسه ذاتيا؛ لأن هذه الجملة نفسها لا يمكن للعلم إثباتها، فكيف نسلم بصحة شيء لا يمكن البرهنة عليه؟ كما أنها توظيف للعلم في غير محله، فالعلم "التجريبي" لا يستطيع إثبات الحقائق الرياضية أو الحقائق الوجودية، كذلك لا يمكنه إثبات الحقائق التاريخية أو الأخلاقية. فمثلا: كيف يمكننا أن نثبت علمياً عن طريق التجربة وجود أرسطو أو أفلاطون أو غيرهم؟ وكيف يمكننا أن ندلل تجريبيا على تحريم زنا المحارم؟ أو كيف يمكننا أن نقنع السارق تجريبيا بحرمة السرقة؟... إلخ، كل هذا وغيره من مئات الأمثلة لا ناقة

للعلم التجريبي فيها ولا جمل؛ لأنه ليس معنيًا بها ولا مصمم لها ولا لدراستها، إذ يهتم العلم التجريبي بدراسة الكون ومكوناته والبحث في ظواهره بغيّة تفسيرها والسعي لمعرفة أسبابها^(١)، وهو أمر طبيعي، لكن لا يمكن للعلم التجريبي البحث فيما وراء الكون وماذا كان قبله، أو ما الغرض من نشأة الكون؟ ولماذا نحن موجودون في هذا الكون؟ مثل هذه الأسئلة الوجودية هي منقطة مُحرمة على العلم الاقتراب منها كذلك، وليس هذا من أجل ضعف في الإمكانيات أو التكنولوجيا العلمية الحالية والتي قد يتجاوزها العلم مستقبلاً؛ ولكن لأن مثل هذه الأسئلة لا علاقة للعلم بها؛ لأنها خارج نطاقه ولا يتعرض لها بأي وجه من الوجوه.

إنّ العلم الطبيعي مبني أيضاً على بعض الافتراضات، وأحد هذه الافتراضات المهمة: أن قوانين الطبيعة كانت نفسها في الماضي السحيق - ومنذ بلايين السنين - وهي كما هي حتى الآن، فبالفعل لا توجد طريقة لمعرفة صحة هذه النقطة في تاريخنا، ولكن لو كانت هذه القوانين مختلفة.. فإن بعضًا من العلم الطبيعي سيحتاج للمراجعة، وحتى الآن فإن الشك في صحة هذا الافتراض لا يجد دعمًا في المجتمع العلمي، ولكن من المتفق

عليه والمُغفل عنه: أن العلم الطبيعي يقوم على أقل عدد ممكن من مثل هذه الافتراضات، وهو كذلك... ويؤكد الفيزيائي (جون بولكينجهورن) (John Polkinghorne) على أن: "قوانين الفيزياء – كما تعرف عنها الفيزياء الحديثة – لا تملك سمة الاكتفاء الذاتي، ولكن يبدو «بالأخص» أنها تشير لما بعدها للحاجة لمستوى أعلى وأعمق من الوضوح"^(١).

كذلك مما يؤيد قصور المنهج العلمي التجريبي وعدم قدرته على الإحاطة الكاملة والوصول إلى الحقيقة المطلقة = مبدأ عدم التأكد مُبرهنة جودل محدودية الكون:

◆ مبدأ عدم التأكد:

دعنا ننظر في عالم الكوانتم^(٢)، نجد في الكوانتم مثلاً قانون الثنائية أو الارتيازية فكلها مصطلحات تؤدي إلى غرض واحد، وهو إما أن يتبين لدينا أن الجسيم يمر كموجة أو كجسيم وإما أن نعرف موضعه أو كمية حركته بالضبط، أما أن نعرف حقيقة

(١) مصطفى نصر قديح، الصنع المتقن: دلالات الفيزياء على وجود الخالق، مركز دلائل، الرياض، ٢٠١٧م. (ص ٢٨١-٢٨٢).

(٢) نظرية الكوانتم طرحت عام ١٩٠٠م ومؤسسها هو عالم الفيزياء الألماني (ماكس بلانك)، وتعتبر هذه النظرية أهم نظرية في الفيزياء الحديثة بجانب نظرية النسبية (لأينشتاين)..

الأمرين كاملاً فهو شيء مستحيل، وهذا لا يعني أننا متى عرفنا أحد الأمرين -الموضوع مثلاً- معرفة كاملة أن الشيء الآخر ليس موجوداً -ومن ذلك كمية الحركة مثلاً- بل هو موجود لكننا عاجزين وسنظل عاجزين عن معرفته، وذلك لأن دساتير -قوانين- الفيزياء هذه = حدود معرفتنا المادية التي بها نستكشف الظواهر الموجودة في الكون، وليس لنا من سبيل مادي غيرها^(١)، فقوانين الفيزياء الأساسية تمنع أي عالمٍ مهما كانت ظروفه أو إمكانياته مثالية من الحصول على معلومات مؤكدة بشكل يقيني. فما يقوم بقياسه يشتمل بشكل طبيعي على مقدار من عدم الدقة لا يمكنه تجاوزه؛ لأنه قانون طبيعي. وهو ما يعني عدم قدرته على التنبؤ بحركة الأشياء مستقبلاً بدقة متناهية، فسيظل هناك نسبة ولو صغيرة من عدم التأكد. فالفيزياء علم لا يمكنه أن يعطينا أكثر من تنبؤات إحصائية فقط. ومعنى هذا المبدأ أنه مهما كان الإحكام وتطوير وسائلنا في القياس فلن يمكننا ذلك من التوصل إلى معرفة كاملة للطبيعة من حولنا^(٢).

(١) <https://www.theguardian.com/science/2013/nov/10/what-is-heisenbergs-uncertainty-principle>

(٢) "The uncertainty relation between 'Igor (1945) 'Tamm 'Leonid 'Mandelstam Izv. Akad. Nauk SSSR 'energy and time in nonrelativistic quantum mechanics" (9: 122-128. English translation: J. Phys. (USSR) 9, 249-254 (1945 'ser. Fiz.)

إذاً لدينا قوانين تحكم عالمنا، لكنها محدودة ونتعرف على العالم من خلالها..! وعليه فستظل معرفتنا المعتمدة على هذه القوانين محدودة بحدودها = الحقيقة الكاملة لكي نعلمها تتوقف على شيء آخر خارج عن حدود عالمنا الذي نوجد فيه، متجاوزاً لقوانينه وإطاره المحدود، ومن هنا نستنتج أن هناك مصادر أخرى للمعرفة غير العلم الطبيعي، والعلم الطبيعي أحد هذه المصادر لكنه ليس المصدر الوحيد لتكوين الحقائق، ومن هذه المصادر: الحس والعقل والنقل والتجربة،.. إلخ^(١)، وبالتالي فحاجتنا لمصادر المعرفة الأخرى هو أمر ضروري؛ حتى تكتمل لدينا الصورة ونصل إلى الحقيقة المطلوبة، والوصول إلى إجابة الأسئلة الأخرى التي عجز عنها العلم التجريبي.

فالعلم التجريبي يساعدنا بقوة في أسئلة كيف؟ كيف تسقط الأشياء على الأرض؟ كيف تعمل آلة ما؟.. لكنه لا يستطيع الإجابة عن أسئلة لماذا، أو الأسئلة الغائية الوجودية، لماذا نحن هنا؟ لماذا خلق الكون؟ ما الغرض من صنع آلة ما؟... إلخ.



(١) محاضرة الشيخ عبدالله العجيري (مدخل لفهم نظرية المعرفة):

◆ مبرهنة (جودل):

يقوم الفكر المادي على مقدمة أساسية = افتراض أن هذا الكون يمكن تفسير وجوده بمجموعة من القوانين المادية، وهذا أمر مناقض لمبرهنة (جودل) لعدم الاكتمال (Gödel Incompleteness Theorem) وتُنص مبرهنة (جودل) على أنه: "ما من نظام رياضي متناسق إلا ويتضمن على الأقل عبارة رياضية واحدة صحيحة لا يمكن برهنتها صحتها. وهو ما يعني عدم وجود نظام رياضي كامل إذا كان متناسقاً، فأي نظرية ستحتوي دائماً على أشياء لا يمكن إثباتها من داخل النظرية ذاتها"^(١)، فهي تثبت أن أي نظام (الرياضيات، الفيزياء، الكون... إلخ) لا يمكن أن يثبت من داخله ولا يستطيع أن يكون قائماً بذاته، ولا يكتمل سوى بانتسابه لغيره، فهو دائماً يفترق إلى نقطة خارجه يستمد منها صحته.. بالتالي فلنخرج بنموذج علمي صحيح للكون فإن وجود مؤثر خارجي (أي: خارج حدود الكون) هو أمر ضروري، وبالتالي فمبرهنة (جودل) أكّدت لنا قصور المنهج العلمي التجريبي وعدم الاكتفاء الذاتي^(٢).

(١) Miskatonic University Press: Gödel's Incompleteness Theorem, Last modified: 14 January 2014. [<https://www.miskatonic.org/godel.html>]

(٢) <https://www.perrymarshall.com/articles/religion/godels-incompleteness-theorem>

◆ كون محدود:

منذ بداية القرن العشرين وحتى لحظتنا هذه والأدلة تزداد يوماً بعد آخر على محدودية الكون وبدايته، فالكون محدود زمانياً ومكانياً، ويؤكد هذا العالم الفيزيائي (بول ديفيز) قائلاً: "تشير كل الدلائل إذاً إلى: كون له عمر زمني محدود أتى للوجود في زمن محدد، ويتسم بالنشاط، ولكنه محتمٌ عليه في النهاية بالموت الحراري في مرحلة معينة في المستقبل"^(١).

ويترتب على محدودية الكون قصور الإنسان عن امتلاك طريقة علمية تجريبية تمكنه من الإجابة عن سؤال ماذا كان قبل الكون؟ أو ماذا يوجد خارج الكون؟ فالعلوم التجريبية تتعطل خارج نطاق حدود الكون الزمكانية^(٢)، حيث تنهار القوانين الفيزيائية عند بداية الكون ولا يمكنها أن تتعامل مع الحقائق المطلقة، ويصبح إدراك الوجود بشكل حقيقي بناءً على المعطيات التجريبية فقط = أمر مستحيل، فالعلم التجريبي محدود بحدود الكون الزمكانية ولا يمكنه تجاوزها، والاعتماد عليه - وحده - في معرفة الحقائق الكلية أمر يؤدي إلى قصور معرفي... وبالتالي فالمنظومة الكونية لا يمكن أن تُفسر من

(١) Paul Davies (1994). The last three minutes: Conjectures about the Ultimate Books, p.18. Fate of the Universe. Basic

(٢) الزمكان: مصطلح فيزيائي منحوت من كلمتي الزمان والمكان، ويُقصد به الفضاء رباعي الأبعاد.

داخلها، وشرط صحة معارفنا = أن يكون معيار المعرفة خارج الإطار الزمكاني للكون.

❖ لا تعارض بين الدين والعلم:

كثيراً ما يدعي الملحدون أن العلم - التجريبي - يُعارض الدين، بل وقد يتعجب البعض من تمسك المرء بدينه وانشغاله بالعلم في آن..! ولذا فهم يدعون إلى الاقتصار عليه كمصدر معرفي وحيد، لكن هذا أمر نفسي بالمقام الأول ولا وجود حقيقي له في الواقع، ويعترف بذلك الملحده الشهير (لورانس كراوس) في مناظرته مع (حمزة تزورتزس) والتي كانت بعنوان: الإسلام والإلحاد: أيهما أكثر عقلانية، قائلاً:

"العلم لا يتطلب الإلحاد، والدليل على ذلك تجريبي وأنا أو من بالدليل التجريبي، لدي زملاء علماء وهم غير ملحدين، وبما أنهم علماء ممتازين وغير ملحدين، هذا يعني أن العلم لا يتطلب الإلحاد"^(١).

فلم يكن العلم الصحيح معارضاً يوماً للدين الحق على مر الأزمان، والحضارة الإسلامية وتفوقها العلمي والثقافي لمدة قرون هي خير شاهد على هذا، فلم يكن للعرب يوماً قيمة بين حضارات الأمم إلا بعد الإسلام، وكان السبب الرئيس لتقدم المسلمين هو تمسكهم بدينهم الذي يدعوهم للتقدم الحضاري والروحي، وما تخلف المسلمون عن ركب الحضارة إلا بعد أن

تخلفوا عن التمسك بدينهم كما ينبغي، فالعلم الصحيح يصف الكون الذي خلقه الله، والدين الحق لا بد أن يكون من عند خالق الكون، ولا يمكن أن يكون المصدر واحداً ويوجد تعارض بينهما، فكل اكتشاف علمي جديد عبارة عن كشف إضافي عن النظام الذي وضعه الله في كونه، وإنك إذا درست العلم بالعمق الكافي.. فسيُجبرُك ذلك على الإيمان بالإله^(١).

ويلخص علاقة العلم بالدين العالم الفيزيائي (ماكس بلانك) مؤسس ميكانيكا الكوانتم وحاصل على نوبل في الفيزياء وأحد أكبر علماء القرن العشرين قائلاً:

" لا يُمكن أن يوجد أبداً أي تعارض بين الدين والعلم، بل كل منهما مُكْمَلٌ للآخر، وأعتقد أن أي شخص جاد وصادق يُدرك هذا، فأنا أعتقد أن العنصر الإيماني في طبيعته يجب أن يكون معروفاً وراسخاً إذا تكافتت كل قوى نفس الإنسان في توازن وتناسق تامين، وفي الحقيقة ليس من الصدفة أن أعظم المفكرين في كل العصور كانوا نفوساً ذات إيمان عميق"^(٢).

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم^(٣).

(١) مصطفى نصر قديح، الصنع المتقن: دلالات الفيزياء على وجود الخالق، مركز دلائل، الرياض، ٢٠١٧م. ص. ٢٨٢-٢٨٣.

(٢) Planck, Max Karl Ernst Ludwig. (1932). Where is Science Going? (pp. 168).

New York, NY: W. W. Norton & Company, Inc

(٣) إعداد: مصطفى نصر قديح.

هل نحن بحاجة إلى الأنبياء وورثتهم؟

أضحى الإعلام الجديد في زمننا المعلم الأول لكثير من شرائح المجتمع، فأينما قلبت النظر وجدت متصفحًا لها سواء في الأجهزة المحمولة (الجوال) أو غيرها، فهذا يشاهد نصيحة أرسلها فلان، وذاك يقرأ مقالة كتبها علان، وآخر يقلب صورًا، ورابع يردُّ على قضية، وهكذا.

لم تكن هذه القضية ذا بال لنستفتح بها ورقة علمية، ولكن الأمر الذي أرهق المربيين والمفكرين والمعلمين أن هذه المواقع غدت منبعًا لبثَّ شبهات وأفكار وآراء تناقض الدين وتنقض القيم وتخلخل الأعراف، ومن تلك الأفكار التي تأثر بها كثير من الشباب اليوم، التزهيد في الأنبياء، والتهكم بميراثهم، والازدراء بورثتهم، والانبهار بتقدم الغرب في الصناعة والتكنولوجيا، والسير وراءهم تقليدًا أعمى في كل شؤون الحياة!! فصار الأولون يُستدبرون والآخرون يُستقبلون! وظنَّ من ظنَّ منهم أن لا حاجة إلى الأنبياء في عصر التكنولوجيا والتقدم كما يزعمون!

ومن هنا كانت هذه الورقة لبيان افتقار البشر إلى النبوة، وضرورتها لحياة البشرية وإلا طُمسوا من الوجود، مع التلميح إلى شيء من أدوارهم العظيمة التي لا يمكن أن يقوم بها غيرهم.

❁ حقيقة المشكلة.

يشغّب كثيرٌ بالتشكيك في حاجة البشرية إلى النبوة وإلى الأنبياء، وأنه أمر تاريخي قديمٌ يمكننا اليوم الاستغناء عنه، في وقت لمع فيه نجم العلم التجريبي والصناعي لدى الغرب، ونعقوا نعاق الغربان أن لا حاجة لهم إلى الأنبياء ولا إلى الوحي بعد نيلهم حفنة من أسرار الكون عن طريق العلم التجريبي!!

وضخّوا قولهم ذلك في وسائل الإعلام ضخّاً، فكان لذلك أثره على بعض المسلمين المنبهرين بتقدّمهم الصناعي، وهذا التأثير حاصلٌ لدى كثير، وهو وإن لم يصرّح به بعض الناس إلا أن واقع حياتهم وبُعدهم عن ميراث الأنبياء، بل والازدراء بها فضلاً عن إغراقهم في الخضوع لأقوال المشكّكين، ومعارضتهم لكل شيء بالعقل وإن كان ممّا لا يستطاع الوصول إلى مثله إلا بخبر النبوة= يُترجم عن هذا الدّخن الكامن في النفوس، فأضحى التسليم لقول عالم الطبيعة عقلنة، وغدا التسليم لقول الله تعالى ورسوله ﷺ تخلفاً ورجعيةً، وهكذا بدأ التساؤل يطفو على العقول والأذهان، هل نحن بحاجة إلى الأنبياء؟

هل النبوة مسألة عاطفية افتراضية فحسب؟

قبل كل شيء لا بد أن نوقن بأن الإيمان بالنبوة قائم على أسس عقلية وأدلة منطقية، وليس هو مجرد دعوى عاطفية أو مشاعر روحية أو مسألة افتراضية، وإنما هي قضية منبثقة عن قضية

ضرورة بدهية، وهي الإيمان بالخالق سبحانه، فمن أقر بوجود الخالق، لا بد وأن يسلم بالنبوة طردًا وعكسًا وإلا كان متناقضًا في عقله متقلبًا في تفكيره.

فإيماننا بالله تعالى وصفاته وكماله يركن إلى طود شامخ، وأدلة متنوعة متضافرة في العقول والفطر والآفاق والأنفس؛ كدليل الخلق والإيجاد ودليل الإتقان والإحكام وأدلة الفطرة كالمقدمات الفطرية والغرائز الفطرية أيضًا والقيم الأخلاقية والإرادة الغائية^(١)، وإذا كانت مسألة النبوة معتمدة على الإيمان بوجود الله تعالى، فهل يمكن مناقشة الملاحظة في مسألة النبوة؟

السلم الصحيح للنقاش والتحاور هو طرح مسألة وجود الله أولًا، فالقضية الأساسية الجوهرية التي عليها تُبنى القضايا الأخرى هي إثبات وجود الله تعالى وربوبيته، ثم يتفرع بعد ذلك

(١) ينظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٣/٣٠٣)، وللإستزادة عن أدلة وجود الله ينظر: مقالات أدلة وجود الله الصادرة عن مركز سلف للبحوث والداراسات؛ كالمقدمات الأولية: <http://salafcenter.org/522> والغرائز: <http://salafcenter.org/639> والنزعة الأخلاقية: <http://salafcenter.org/548> والإرادة الغائية: <http://salafcenter.org/647> والإرادة الحرة: <http://salafcenter.org/683>

الحديث عن النبوة والرسول وغير ذلك من القضايا الدينية؛ لأن "من لم يعترف بأمر الله لم يعترف بالنبوة قط" كما يقول الغزالي - رحمه الله تعالى -^(١)؛ ذلك أن "الكلام في النبوة فرع على إثبات الحكمة التي توجب فعل ما تقتضيه الحكمة ويمتنع ما تنفيه" كما يقول ابن تيمية - رحمه الله تعالى -^(٢)، وقد حرّر علماء الإسلام هذه المسألة مذقرون، يقول الإمام الماوردي - رحمه الله تعالى -: "لا يصح التعبد ببعثة الرسل إلا بعد معرفة المرسل"^(٣)، ويقول الإمام القرطبي - رحمه الله تعالى -: "ينبغي لك أن تعرف أن المعجزة لا تكون دليلاً إلا في حق من علم وجود الباري تعالى وأنه قادر عالم مرید موصوف بصفات الكمال حتى يتأتى منه الإرسال والتصديق والتكليف، وإذا لم يعرف الناظر هذه الأمور بأدلة عقلية لم يعرف المعجزة ولم يفده العلم بالتصديق للنبي"^(٤).

إذن الإيمان بالنبوة فرع عن الإيمان بالله وبحكمته ﷻ،

(١) معارج القدس (ص ١٣٤).

(٢) النبوات (٢/٩١٧).

(٣) أعلام النبوة للماوردي (ص ٩).

(٤) الإعلام بما في دين النصارى من الأوهام للقرطبي (ص ٢٣٩).

وتوضيح ذلك:

أَنَّ مَنْ آمَنَ بِوَجُودِ اللَّهِ ﷻ وَخَلَقِهِ الْكَوْنَ، وَضَبَطَهُ كُلَّ مَكُونٍ فِيهِ ضَبْطًا دَقِيقًا^(١) لَا بَدَّ وَأَنْ يُقَرَّرَ بِقُدْرَتِهِ الْمَطْلُوقَةِ وَإِرَادَتِهِ الَّتِي لَا مُمَسِّكَ لَهَا، وَحِكْمَتِهِ الْبَالِغَةَ ﷻ فَهُوَ سُبْحَانَهُ ﴿الْأَعْلَى ١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسْوَى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾ ﴿[الأعلى: ١-٤].

وحينئذٍ فلا مانع يمنع من إمكانية النبوة من حيث قدرته سبحانه، كيف وهو الذي خلق السماوات والأرض ومن فيهما، أليس بقادر على أن يرسل رسولا أو ينبيء أحدا من خلقه؟!!

وأيضًا لا مانع من جهة حكمته ﷻ؛ إذ لا يستقيم لدى الحكماء أن يكون خلق هذا الكون عبثًا أو لعبًا، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْ مَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١١٥﴾ فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكِ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴿[المؤمنون: ١١٥، ١١٦]، بل الحكمة تقتضي ألا يكون هذا الصنع المتقن إلا لحكمة وغاية نبيلة؛ كما أخبر الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبِينَ﴾ ﴿٣٨﴾ [الدخان: ٣٨]، وهذه الغاية الشريفة هي عبادته ﷻ، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿٥٦﴾

(١) ينظر: مقال (كون مناسب للحياة) الصادر عن مركز سلف للبحوث والدراسات، وقد سبق في هذه المجموعة.

[الذاريات:٥٦]، وتلك هي أنبل غاية وأكمل علاقة بين الخالق ومخلوقه^(١).

❦ ولكن، كيف السبيل إلى أن يعرف الإنسان هذه الغاية؟!

في واقع الأمر البحث عن الغاية من وجود الإنسان، وسؤال: لماذا نحن هنا؟ من أكثر الأسئلة إلحاحًا على النفس البشرية الشغوفة بالاطلاع والبحث عن الغايات، ولطالما أشغل هذا السؤال الفلاسفة وأرق المفكرين، وكان البحث في هذه القضية على قدم وساق مذ ملايين السنين، ولكن هل للقدرات البشرية المحدودة إدراك هذه الغاية بنفسها؟

يُكابِر بعض الناس في هذه المسلّمة وفي كون قدراته محدودة بل وفي حدود ضيقة، عجبًا!! أليست أدوات الإنسان المعرفية محدودة؟ أليس سمعه محدودًا؟ فهو لا يسمع إلا في المدى المسموح له بذلك، ثم متى كان بصره خارقًا ليدرك به كل المبصرات؟ بل الإنسان لا يرى ببصره إلا في حدود ضيقة وبشروط معروفة، والحال نفسه مع العقل البشري المحدود، نعم فعقل الإنسان محدود بالمجال الذي وُضع له لا يتجاوزه، والولوج بالعقل إلى الأعماق التي لم يُخلق لها يغرقه في أمواج

(١) ينظر: مقال (إذا كان الله غنيًّا عنا فلم يأمرنا بعبادته؟!) والصادر عن مركز سلف للبحوث والدراسات، وهو المقال اللاحق في هذه المجموعة.

الخرافات والشعوذات، فإذا كانت قدرات الإنسان وملكاته محدودة، ويقرّر اليوم ما ينقضه غدًا، فكيف له أن يُدرك بنفسه قضية جوهرية مطلقة مثل غاية وجوده وغاية خلق الخلق؟

إذن؛ الإنسان بأدواته المعرفية لا يستطيع الوصول لهذه الغاية وإدراكها، ولكن بعض الناس اليوم فُتِنَ بتقدّم العلم التجريبي وظنّ أنه قادر على تجاوز هذه المسألة، ولذا من المشروع هنا أن نتباحث، هل العلم التجريبي يملك أدواتٍ مطلقة أم هو الآخر محدود أيضًا؟ في واقع الأمر لا بد أن يعترف أرباب العلم التجريبي أن علمهم ككل العلوم له حدود يقف عندها، والبحث في الغاية من وجود الإنسان ليست في إطار دراساته؛ إذ العلم التجريبي يُعنى بدراسة الظواهر الكونية وتفسيرها وفقًا لتلك الظواهر، لكن ليس من شأنه البحث في الأسئلة الوجودية الكبرى الشهيرة، والتي من أهمها سؤال: لماذا نحن هنا؟ وما الغاية من وجودنا؟ وإلى أين المصير؟

فالعلم التجريبي لا يستطيع أن يخوض في كل مسألة وإنما له نطاق يبحث فيه، والخروج عن ذلك النطاق يُعدّ خبطًا وخطلاً، ولذا فهو في كثير من القضايا يحتاج إلى غيره ولا يمكنه الاكتفاء بنفسه، يقول (جون بولكينجهورن): "قوانين الفيزياء - كما تعرف عنها الفيزياء الحديثة - لا تملك سمة الاكتفاء الذاتي،

ولكن يبدو «بالأخص» أنها تشير لما بعدها للحاجة لمستوى أعلى وأعمق من الوضوح^(١).

وإذا كان الإنسان بمَلَكَاته وأدواته العلمية ومعارفه محدودًا قاصرًا، فمن أين له أن يُدرك غاية وجوده؟

❖ دلائل الافتقار إلى النبوة:

ليس من الحكمة والعدل أن يُترك الإنسان وأدواته المحدودة ليتيه في ببداء قاحلة، ويصارع الآراء المتشعبة والأهواء المتنافرة والعقول المتعاركة بحثًا عن قطرة ماء تُروي تساؤلاته، وتدله على غاية وجوده.

فمن الصَّورِي أن يكون للإنسان مصدرٌ لتعليمه هذه الغاية التي خُلق لها، مصدرٌ يتصف بشمول العلم وإحاطته وعدم تأثره بالظروف والأهواء والميول، وليست هذه الصفات المطلقة إلا لله تعالى الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، فكان لا بد من التواصل بين الله والإنسان، وذلك عن طريق رسل يصطفاهم الله تعالى من البشر أنفسهم؛ ليكونوا أقرب للاستيعاب والتصديق، وليُمثّلوا النموذج الأرقى لتلك الغاية والقدوة الأمثل في قصدها،

(١) نقلًا عن: الصنع المتقن لمصطفى نصر قديح (ص ٢٨١)، وينظر: مقال: قصور العلم التجريبي، الصادر عن مركز سلف للبحوث والدراسات، وهو المقال السابق في هذه المجموعة.

فالنبوة إذن ضرورة إنسانية لا مناص للبشر عنها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى لا ينكر أحد أن الإنسان مُيّز عن غيره من المخلوقات بتسخير السماوات والأرض وما بينهما له وأعطيت له الخلافة والسيادة في الكون، وهَيَّأت له الأرض يعمرها ويشيّد فيها الحضارات، وكُرِّم بحمله في البر والبحر، وخلقته على أكمل صورة وأعدل خلقة، أو يصحّ في العقل أن يُعتنى به في كل تلك الأمور، ثم لا يُعتنى بإبلاغه غاية وجوده؟! فلا بد إذن من طريقة يبلغهم الله بها غاية إيجادهم في الأرض، وتلكم هي النبوة.

ولنا في الصناعات الحديثة مثل، ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠]: انظر إلى أيّ مصنوع شئت اليوم، ألا ترى كل صانع يرفق صنعته بـ(كتالوج) أو شيء يُوضح غاية ذلك المصنوع وطريقة عمله، ويُعتبر ذلك نوع كمال للصانع، فالله سبحانه أولى بهذا الكمال.

وفي هذا الذي قرّرناه يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: "الرسالة ضرورية لعباد لا بد لهم منها، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء، والرسالة روح العالم ونوره وحياته، فأى صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور؟ والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة، وكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة

ويناله من حياتها وروحها فهو في ظلمة، وهو من الأموات، قال تعالى: ﴿أَوْ مِنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فهذا وصف المؤمن كان ميتا في ظلمة الجهل فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان وجعل له نورا يمشي به في الناس. وأما الكافر فميت القلب في الظلمات... فإن الله سبحانه جعل الرسل وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم وبعثوا جميعا بالدعوة إلى الله وتعريف الطريق الموصل إليه وبيان حالهم بعد الوصول إليه"، ثم ذكر رَحِمَهُ اللهُ أَنْ الدين ينبي على ثلاثة أصول: التوحيد والشرائع واليوم الآخر ثم قال: "وعلى هذه الأصول الثلاثة مدار الخلق والأمر والسعادة والفلاح موقوفة عليها ولا سبيل إلى معرفتها إلا من جهة الرسل؛ فإن العقل لا يهتدي إلى تفاصيلها ومعرفة حقائقها وإن كان قد يدرك وجه الضرورة إليها من حيث الجملة؛ كالمريض الذي يدرك وجه الحاجة إلى الطب ومن يداويه ولا يهتدي إلى تفاصيل المرض وتنزيل الدواء عليه. وحاجة العبد إلى الرسالة أعظم بكثير من حاجة المريض إلى الطب؛ فإن آخر ما يُقَدَّرُ بعدم الطبيب موت الأبدان، وأما إذا لم يَحْضُرْ للعبد نور الرسالة وحياتها مات قلبه

موتاً لا تُرجى الحياة معه أبداً أو شقي شقاوة لا سعادة معها أبداً، فلا فلاح إلا باتباع الرسول" (١).

والحاجة إلى النبوة ليست مقتصرة على هذه القضية، بل الإنسان وإن عرف أن عبادة الله تعالى غاية وجوده، يحتاج إلى معرفة الطريقة والمنهج والشرع الذي يُقربُه إلى الله، فكيف يتم له ذلك؟ هنا يلوح لنا جانبٌ آخر من جوانب الافتقار والحاجة إلى النبوة والوحي، إذ لا سبيل للبشر بقدراتهم وعلومهم إلى معرفة طرق التقرب إلى الله، بل لا يتحصل ذلك إلا عن طريق الأنبياء، وفي ذلك يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: "لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم، ولا ينال رضا الله البتة إلا على أيديهم، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاءوا به، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأقوال والأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه والعين إلى نورها والروح إلى حياتها" (٢).

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٩ / ٩٣).

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد (١ / ٦٩).

والإنسان وإن عُلِّمَ الغاية والمنهج الذي يسير به إلى ربِّه نظريًّا، فسبقني مفتقرًا إلى قدوة يقتدي بها ويتعلَّم منها واقعيًّا، وتكون على أكمل الصور الممكنة في الحياة البشرية، ذلك أن الاقتداء والتأسي غريزة بشرية، فتجد الإنسان يرث صفات من يختلط به ويكنُّ له التقدير كالوالدين، والمعلم، والصديق وغيرهما، فنحن إذن بحاجة ماسَّة لقدوة بلغت الكمال في تحقيق تلك الغاية التي خُلِّقنا لها، وهؤلاء القدوة هم الأنبياء الذين امتنَّ الله علينا بإرسالهم، يقول ﷺ في نبينا محمدٍ ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وبعد كل هذه الدلائل:

لو حلَّقنا بأنظارنا وتفكَّرنا في كائنين: (خالق ومخلوق)، مخلوقٌ أوجده خالقه بعد عدم، وسخَّر له السماوات والأرض وما فيهما، وذلك الخالق له الكمال المطلق في كل أسمائه وصفاته وأفعاله، فقل لي بربك كيف تكون طبيعة العلاقة بينهما إن لم تكن عبودية الأول للآخر؟!

وإن شئتُ قلتُ: هل هناك علاقة للإنسان المخلوق أشرف من هذه العلاقة؟ أليس الإنسان المخلوق أحوج ما يكون إلى التعلُّق بربِّه وخالقه؟!

فهذه العلاقة ضرورية بالنسبة للإنسان، وإذا كان كذلك فمن الذي يضع الأنظمة لهذه العلاقة؟ أهو الإنسان نفسه؟

يا سبحان الله!! أرأيت يوماً من الأيام ملكاً من ملوك الدنيا، يضع عبده أنظمة ومناهج اللقاءات بينهما والجلوس في المجلس الملكي والكلام والاستئذان والخروج؟! أم أن الملك هو من يحكم في ذلك؟

وكيف يُخَوَّل للإنسان وضع أنظمة العلاقة بينه وبين خالقه وهو قاصر عن إدراك النظام الأكمل لعلاقته مع بني جنسه؟! وكثيراً ما يقرّر شيئاً ويقوم رأياً ثم ينقض ما كان يراه بالأمس قوياً، فإن كان الإنسان عاجزاً عن ضبط علاقته بأقرانه من البشر، فكيف يضبط علاقته بالله؟!!

إذن الإنسان بحاجة ملحة إلى التعلُّق بربه الذي ليس في الوجود علاقة أكمل منها وأشرف، وإلى أن يضبط له خالقه الأنظمة والمناهج لتلك العلاقة؛ لأنه العليم الحكيم الخبير ﷺ، وطريق إدراك ضوابط تلك العلاقة هم الأنبياء والرسل عليهم السلام.

ولكن هذه العلاقة الطبيعية بين الإنسان وخالقه مُعَرَّضة لأن يعترها ما يشوبها ويعكّر صفوها؛ لأنَّ الإنسان ليس كسائر المخلوقات، بل هو كثير النسيان كثير الذهول وتُحرِّكه الشهوات والميول والنزوات، ويملك إرادة حُرَّة يتحرك بها، وأيضاً إبليس قد أخذ على نفسه العهد على إغواء بني آدم، وحلف وقال:

﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَا تَجِدُنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ

أَيْمَنِيهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧]، فهذه الأمور تتسبب في تحريف الإنسان عن مساره الطبيعي، وهنا تأبى الرحمة الإلهية أن تترك الإنسان وغفلته، بل يرسل الله ﷻ ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

ولو أن الإنسان لم تكن فيه تلك الصفات التي تحرف مساره كحال عامّة المخلوقات لما احتاج إلى الرسل، ولكن الله كرم الإنسان وميّزه بين خلائقه بأن أعطاه الإرادة الحرّة حين اختارها، ثم أرسل إليه الرسل وأنزل الكتب يذكره بذلك العهد والميثاق^(١).

هذه صورة من صور الافتقار إلى النبوة وصلنا إليها بالتفكير في حال المخلوق، ولو نظرنا من جهة كمال حكمة الله ورحمته ستجلى لنا صورة أخرى.

ذلك أن الحكمة الإلهية تقتضي أن يتفضل الله ﷻ بضبط هذه العلاقة وتيسير سبلها للخلق كلهم.

(١) ينظر: مقال الإرادة الحرّة ووجود الله في موقع مركز سلف للبحوث

أليس من الكمال لأيِّ مَلِكٍ في الأرض إن كان محبًّا لمملوكيه أن يبيِّن أنظمة العلاقة بينه وبين مملوكيه، وطريقة الكلام والتحية والجلوس والخروج، وما يحبُّ من ذلك وما يكرهه؟! بل من الحكمة والعدل أن يفعل ذلك؛ ليتعامل معه أتباعه على ما يريد، ويحاسبهم على ما قرَّر هو أولاً.

﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠] ﷺ، فالله تعالى أولى بهذا الكمال من المخلوقين، فمن الحكمة أن يبيِّن للناس سبل محبته والتقرب إليه ﷺ حتى يلتزموا بها، وكذلك الأمور التي يكرهها حتى يتجنبوها، ويبلغهم إياها البلاغ المبين، الذي لا يفهمه بليدٌهم فضلاً عن العقلاء.

وهذا ما حصل فعلاً، فالله ﷻ قد وضع هذا المنهج وبلَّغه إلينا بأقرب الوسائل وأنجع الطرق، ألا وهم الأنبياء عليهم السلام الذين هم أرحم وأبلغ وأنصح؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣]، وقال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وبهذا ندرك أن إرسال الرسل رحمةً للعالمين، وإشفاقٌ على البشرية وحاجتهم الملحة وإلا فسدت السماوات والأرض والكون بأسره، يقول أبو الحسن الندوي: "إن المدنية لا تدين لأي طائفة

من طوائف البشر كما تدين لهذه الطائفة الربانية، إنها تدين لها في حياتها وبقائها، وفي شرفها وكرامتها، وفي اعتدالها وسدادها، فلولاهم -صلى الله عليهم وسلم- لغرقت سفينة الإنسانية بما فيها من علوم، وتراث حضاري، وفلسفة، وحكمة، ولتحولت الأجيال البشرية إلى قطعان من السائبة أو الوحوش، لا تعرف رباً، ولا تعرف ديناً ولا خلقاً، ولا تعرف رحمة ولا محبة، ولا تعرف معنى أسمي وغاية أعلى من العلف والرتع، ومن الماء والكلاء، إن كل ما يوجد في العالم من المعاني الإنسانية الكريمة، والأحاسيس الرقيقة اللطيفة، والأخلاق العالية الفاضلة، والعلوم الصحيحة النافعة، ومن القوة والعزم على محاربة الباطل والفساد، إنما يرجع فضله وينتهي تاريخه إلى وحي السماء، وتعليمات الأنبياء" (١).

أضف إلى ما سبق أن الإنسان سئول شغوف لمعرفة مصيره بعد هذه الحياة التي يعيشها، وهذا ما نرى كثيراً من المؤسسات أياً كان نشاطها تستغله، فتبرز قيمها ولائحة أنظمتها للموظف والمستفيد، وتوضح لهم وسائل الترقية في العمل والعقوبات المترتبة على المخالفات، ذلك أن الإنسان بحثة عن العواقب والمآلات التي يصير إليها بعد ما يقوم به من جهد وعمل، فإذا كان هذا أيضاً نوع كمال في أعمال الخلق، أفلا يكون الخالق أولى به؟

(١) النبوة والأنبياء في القرآن لأبي الحسن الندوي (ص ٣٩).

إذن من تمام الحكمة والعدل أن يُبين للناس الجزاء المترتب على الالتزام بالأنظمة والمناهج التي سنّها الله تعالى والعكس، حتى يكون الناس أكثر تعلقًا بما يقربهم إلى الله ﷻ وأبعد عما يغضبه؛ ولأن الإنسان لا محالة سيحاسب على أعماله وطبيعة علاقته بربه، وواقفٌ بين يديه في يوم المصير، فمن كمال العدل أن يلج إلى هذه الأهوال وهو على بينة من أمره، ويعمل ويسعى فيما يوصله إلى مصيره المبتغى، وبيان تلك العواقب الجزاءات متعذرٌ إلا عن طريق الأنبياء والرسل.

وبيان ذلك من تمام النذارة والبشارة وإقامة الحجة فهؤلاء الأنبياء يرسلهم الله؛ ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

ولنرجع البصر كرة أخرى إلى الإنسان ونتأمل في طبيعة نفسه، هل له أن ينفك عن التعبد؟

الشواهد التاريخية والدراسات النفسية والأبحاث الاجتماعية بل وكثيرٌ من فروع العلم التجريبي؛ كعلم الجينات والأعصاب والدماغ يقرر اليوم بأن التعبد والتدين متجذّر في الإنسان ومتأصل في كيانه، فالإنسان متدينٌ بطبعه كما أنه مدنيٌّ بطبعه، وإذا كان كذلك فلا بد من توجيه هذه الخصيصة الإنسانية إلى مسارها، وتوجيهها يكون عن طريق الأنبياء، وإلا خبطت خبط عشواء،

وتداخلت مع الأغراض والأهواء، كما تشهد لذلك واقع الديانات المحرّفة بين من يعبد حجراً أو شجراً أو حيواناً حتى إن منهم من يعبد الفئران وفروج النساء^(١).

إن لم تقنع بعد بحاجتنا إلى النبوة بل افتقارنا لها، فانظر معي في حالك، ألسنت متطلعاً إلى الكمال في كل شيء؟ أليس الإنسان مفطوراً على حبّ الكمال؟ ومتشوّفاً إليه غاية التشوّف؟ وكما ازداد العلو والكمال في شيء ازداد الإنسان به تعلّقاً وإلى معرفته تشوّفاً.

إذا كنت كذلك فإن الله ﷻ له الكمال المطلق في كلّ شيء في أسمائه وصفاته وأفعاله، فهو أعلى وأشرف ما يمكن أن تعرفه ﷻ، والعاقِلُ متطلّع إلى المصدر الذي انبثقت منه البشريّة، ومتشوّفٌ إلى معرفته غاية التشوّف، ومتعلّق به حيث كان سبباً في حدوث هذا الكون العظيم والصنع المتقن، وما كانت رحمة الله وعدله لينذرا هذا المطلب الإنساني لتخبّطات العقل البشري وأدواته القاصرة، بل تقتضي الحكمة والرحمة الإلهية أن يجعل للعلم به والتعلّق به طريقاً آمناً ممهّداً للوصول إليه سبحانه، وذلكم هو طريق الأنبياء عليهم السلام.

(١) ينظر: شموع النهار للشيخ عبد الله العجيري (ص ٣٢).

ومما يدلُّ على افتقار الإنسان إلى النبوة أيضًا أن الإنسان أشرف المخلوقات وأكرمها، ويتميّز بكثير من الخصائص والصفات فهو ذو إرادة حرة، وقصدٍ للكمالات، وبحثٍّ عن العلل والغايات، واختلاف المقاصد والغايات يستلزم بالضرورة اختلاف الأعمال والسلوكيات، ولا بد أن يكون فيها الخير والشر والطيب والخبيث والنافع والضار، وحينئذٍ نحتاج إلى ميزان نزن به تلك الأعمال ونحكم عليها، فمن أين له ذلك؟

هل يستطيع الإنسان بعقله أن يفعل ذلك، أنسينا أن العقل البشري محدود بحدود لا يستطيع تجاوزها، ونحن نحتاج إلى علم مطلق يستوعب كل البشرية كما نحتاج إلى عقل متجرد من الأهواء والأغراض ويتسم بالموضوعية، أي يمكن أن يكون في البشر من يتصف بهذه الصفات؟

لا بالطبع، فنحن إذن بحاجة إلى ميزان يضعه ذو علم مطلق وموضوعي يستوعب البشرية ولا تؤثر فيه الظروف والأهواء والأغراض، وهذا لا يكون إلا فيمن له الكمال المطلق ﷺ، والاتصال بيننا وبينه متعدّد إلا عن طريق الأنبياء والرسل عليهم السلام.

اقرأ قوله تعالى وقد لخص هذا المعنى في جملة واحدة: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

وعلى هذا نص علماء الإسلام، يقول ابن تيمية: "الرسالة ضرورية في إصلاح العبد في معاشه ومعاده، فكما أنه لا صلاح له في آخرته إلا باتباع الرسالة فكذلك لا صلاح له في معاشه ودينه إلا باتباع الرسالة؛ فإن الإنسان مضطر إلى الشرع؛ فإنه بين حركتين: حركة يجلب بها ما ينفعه؛ وحركة يدفع بها ما يضره. والشرع هو النور الذي يبين ما ينفعه وما يضره، والشرع نور الله في أرضه وعدله بين عباده وحصنه الذي من دخله كان آمناً.

وليس المراد بالشرع التمييز بين الضار والنافع بالحس؛ فإن ذلك يحصل للحيوانات العجم؛ فإن الحمار والجمل يميز به بين الشعير والتراب، بل التمييز بين الأفعال التي تضر فاعلها في معاشه ومعاده؛ كنفع الإيمان والتوحيد؛ والعدل والبر والتصدق والإحسان؛ والأمانة والعفة؛ والشجاعة والحلم؛ والصبر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وصلة الأرحام وبر الوالدين والإحسان إلى المماليك والجار؛ وأداء الحقوق؛ وإخلاص العمل لله والتوكل عليه؛ والاستعانة به والرضا بمواقع القدر به؛ والتسليم لحكمه والانقياد لأمره؛ وموالاته وأوليائه ومعاداة أعدائه؛ وخشيته في الغيب والشهادة؛ والتقوى إليه بأداء فرائضه واجتناب محارمه؛ واحتساب الثواب عنده؛ وتصديقه وتصديق رسله في كل ما أخبروا به؛ وطاعته في كل ما أمروا به؛ مما هو نفع وصلاح للعبد في دنياه وآخرته؛ وفي ضد ذلك شقاوته ومضرته في دنياه وآخرته.

ولولا الرسالة لم يهتد العقل إلى تفاصيل النافع والضار في المعاش والمعاد فمن أعظم نعم الله على عباده وأشرف منة عليهم: أن أرسل إليهم رسله؛ وأنزل عليهم كتبه؛ وبين لهم الصراط المستقيم. ولولا ذلك لكانوا بمنزلة الأنعام والبهائم، بل أشر حالا منها، فمن قبل رسالة الله واستقام عليها فهو من خير البرية، ومن ردها وخرج عنها فهو من شر البرية، وأسوأ حالاً من الكلب والخنزير والحيوان البهيم.

وفي الصحيح من حديث أبي موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلاً والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وانتفعوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً، فذلك مثل من فقه في دين الله تعالى ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» ^(١) ^(٢).



(١) صحيح البخاري (٧٩).

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٩ / ٩٩).

✽ الخاتمة:

في الختام نوّكّد أن النبوة ليست مجرد مسألة عاطفية، وإنما مبنية على أسس وبراهين عقلية، ومتدرّجة على الإيمان بالله ﷻ، فالله ذو الكمال المطلق الخالق لنا ولكوننا ولا بد أن تكون لنا به علاقة، والأنبياء هم من يبيّنون لنا طبيعة هذه العلاقة وطريقتها وعواقبها، فالنبوة إذن مطلب إنسانيّ ملحٌّ لا مناص للبشر عنه. وصى الله على نبيّنا محمد وآله وصحبه وسلم^(١).



(١) إعداد: عمار بن محمد الأركاني.



لماذا وُجِدنا؟!!

وما الغاية من وجودنا في الدنيا؟!!

هذه من الأسئلة الملحة على النفس البشرية، والتي حيرت الألباء وشغلت الأذكياء في كل مراحل التاريخ، وهو في ذات الوقت من أخطر الأسئلة الوجودية على الإنسان؛ فكل إرادات الإنسان وحركاته وأفكاره وسلوكياته ستتحوّر وفقاً للغاية التي يُحددها لوجوده بطبيعة الحال.

ولذا فصل^(١) ﷺ وفصل القول في الغاية من خلق الخلق، قال عزّ من قائل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فالغاية التي خلق الله من أجلها الخلق، هي عبادته ﷻ^(٢).

وهنا يعترض بعضهم فيقول: أليس الله غنياً عنّا فلمَ يأمرنا بعبادته سبحانه؟

(١) يعني: قطع الخلاف فيه.

(٢) فعبادة الله غاية لخلقه لهم وليست علة كما يخطئ بعضهم في التعبير عنه، ينظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم د. محمد عبد الخالق عضيمة (٤٧٢/٢).

نقول: ليس معنى خلقنا لعبادته أنه ﷻ محتاج إلى عبادتنا ﷻ، بل نحن المحتاجون إليه سبحانه، كما قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

فالله ﷻ لا تزيده طاعة الطائعين ولا تنقصه معصية العاصين، كما في الحديث القدسي: «يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم؛ ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً...»^(١).

فليست عبادته سبحانه لحاجته إلى العبادة، وإنما لحاجتنا إليه ﷻ.

وتوضيح ذلك مثلاً: ماذا لو كنت بحاجة إلى مهندس معماري لبناء بيتك، وكنت قد عرفت أن في منطقتك مهندساً معمارياً بارعاً لا يُعلَى عليه، وآخر مهارته محدودة في الهندسة، وكلاهما يعملان بنفس التكلفة، فأيهما ستختار؟

(١) صحيح مسلم (٢٥٧٧).

حتمًا ستقول الأول لأنه أكمل، وتسلم لقوله وتستجيب لطلباته وإن كلّفك وقتًا ومالًا وجهدًا؛ ذلك أن البحث عن الكمال غريزة بشرية وركيزة أساسية في النفوس.

فكيف بالله ﷻ الذي له الكمال المطلق، في أسمائه وأوصافه وأفعاله سبحانه، فنحن نسلم لربنا ومولانا بما اختار لنا، وبالغاية التي بين أنها الحكمة من خلقه لنا؛ لأنه ﷻ الأكمل، بل له الكمال المطلق في كل شيء، في العلم والقدرة والحكمة، وفي الرحمة والرأفة سبحانه، أفلا نسلم لقوله ونذعن لأمره ﷻ؟!؟

وتأمل قوله ﷻ: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه:١٤]، كيف نبّه على كمال ربوبيته وألوهيته، ثم أمر بعبادته سبحانه.

هذا من جهة، ولو نظرنا من جهة أخرى، فإن من الكمال أن يظهر أثر صفاته وأفعاله وكمالاته على الخلق ﷻ، ولو كانت المخلوقات كلها تخضع له دون اختيارٍ منها ورغبة لم يظهر ذلك الأثر، فكيف يظهر لنا أثر كمال فضله وكرمه ومحبه إن لم يكن ثمّة من يُحسن طوعًا من نفسه ويستحق الكرم والفضل؟!؟

أم كيف يظهر كمال رحمته وحلمه ومغفرته إن لم يكن ثمّة من يذنب ويتوب؟!؟

أم كيف يظهر كمال عدله إن لم يكن ثمّة من يخطئ؟!؟

ولذا فإن الله تعالى خلق الخلق لا ينفكُون عن عبادته وطاعته، ﴿ تَسْبِحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء: ٤٤]، فهم لا يستطيعون غيرها ولا يملكون إلا الانقياد لله تعالى، ولكن الله مَيَّزَ الثقلين عن كل خلأته، وكرَّمهم بأن أعطاهم حرية الاختيار بين أن يطيعوه أو يعصوه؛ فيعبده الصالحون طوعاً من أنفسهم وطمعاً في فضله وكرمه، ويعصيه غيرهم فيحكم فيهم بعدله سبحانه، فهذا أحد أهم مظاهر الكمالات الإلهية.

وهذه الحرية في الاختيار هي الأمانة التي عرضها على كل المخلوقات فلم تُطق تحمُّلها، وتفرد الإنسان بتحمُّلها كما أخبر الله تعالى عن ذلك بقوله: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، يقول ابن عباس رضي الله عنهما: "الطاعة عرضها عليها قبل أن يعرضها على آدم، فلم تطقها، فقال لآدم: يا آدم إني قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم تطقها، فهل أنت آخذها بما فيها؟ فقال: يا رب: وما فيها؟ قال: إن أحسنت جُزيت، وإن أسأت عُوقبت، فأخذها آدم فتحملها... " (١).

(١) تفسير الطبري (٢٠ / ٣٣٨).

وَلِمَ لَا يَتَحَمَّلُ الْإِنْسَانُ تِلْكَ الْأَمَانَةَ وَهُوَ يَدْرِكُ عَظِيمَ فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَجَزِيلَ ثَوَابِهِ وَشَرَفٍ مِنْ تَحَمُّلِهَا عِنْدَهُ سُبْحَانَهُ؟! وَهَذَا مَا يَظْهَرُهُ لِحَاقِ الْآيَةِ: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٣].

وَسُئِلَ جَعْفَرُ الصَّادِقُ: لِمَ خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ؟ فَقَالَ: "لَأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ كَانَ مُحْسِنًا بِمَا لَمْ يَزَلْ فِيهَا لَمْ يَزَلْ، إِلَى مَا لَمْ يَزَلْ، فَأَرَادَ ﷻ أَنْ يَفُوضَ إِحْسَانَهُ إِلَى خَلْقِهِ وَكَانَ غَنِيًّا عَنْهُمْ، لَمْ يَخْلُقْهُمْ لِحِرٍّ مُنْفَعَةٍ، وَلَا لِدَفْعِ مُضِرَّةٍ، وَلَكِنْ خَلَقَهُمْ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِمْ وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمُ الرِّسَالَ حَتَّى يَفْصَلُوا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، فَمَنْ أَحْسَنَ كَافَأَهُ بِالْجَنَّةِ، وَمَنْ عَصَى كَافَأَهُ بِالنَّارِ"^(١).

وَهَذَا غَايَةٌ فِي الْكَمَالِ أَنْ يُعْطِيَ خَلْقًا مِنْ خَلْقِهِ الْقُدْرَةَ وَالِاخْتِيَارَ بَيْنَ الطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ، فَيَخْتَارُوا هُمْ عِبَادَتَهُ سُبْحَانَهُ وَيُنَالُوا عَظِيمَ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ ﷻ، دُونَ جَبْرِ مَنْهُ أَوْ إِكْرَاهِ عَلَيْهِ عِبَادَتِهِ؛ فَإِنَّ "أَمْرَ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُجْبَرَ وَيَقْهَرَ، وَلَكِنْ يَقْضَى وَيَقْدَرُ وَيَخْلُقُ وَيَجْبَلُ عَبْدَهُ عَلَيْهِ مَا أَحَبُّ"^(٢).

(١) تفسير الثعلبي (٧ / ٦٠).

(٢) مقولة للإمام الزُّبَيْدِيِّ، رواها الإمام اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٤ / ٧٧٥).

ولأجل تحمُّل الإنسانِ الأمانةَ كَرَّمَهُ اللهُ علىِ خلائقه، وفضَّله عليهم، وأسجد له ملائكته، وخصَّه بدخول جنته سبحانه، بل وجعله خليفة يخلفه في الأرض بذلك. يقول ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]: "إني جاعل في الأرض خليفة منِّي يخلفني في الحكم بين خلقي، وذلك الخليفة هو آدمُ ومن قام مقامه في طاعة الله... وأما الإفساد وسفك الدماء بغير حقِّها فمن غير خُلَفَائِهِ، ومن غير آدم... لأنه أضاف الإفساد وسفك الدماء بغير حقِّها إلى دُرِّيَّة خليفته دونه، وأخرج منه خليفته" (١).

وظهور هذا الكمال لله تعالى ليس مفتقراً إلى وجود الإنسان أو محتاجاً إليه، ولكن كمال المولى ﷺ يترتب عليه ظهور آثار كماله على الإنسان من غير حاجة لذلك الإنسان، ألا ترى إلى الشمس كيف يظهر أثر نورها على الخلق دون حاجة منها لتلك الخلائق؟ ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠] ﷻ (٢).

(١) تفسير الطبري (١/ ٤٥٢).

(٢) شاهد أيضاً محاورات ذاكر نايك:

وقد يقول قائل: أنا لا أتذكر أي وافقت على تحمّل هذه الأمانة التي تزعمها!!

فالجواب أن هذا هو سرُّ الامتحان، فإننا لو كنّا نتذكّر ذلك العهد والميثاق المبرم مع ربنا سبحانه لم نكن لنعرض عن عبادته، ولا فائدة حينئذ من حرية الاختيار، ولم يكن ثمّة امتحان واختبار؛

لأن حقيقة الاختبار هو في الإيمان بالغيب، فالمتقون هم ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]، ولو لم يكن الأمر غيباً لاستجاب الناس كلّهم لأمر الله ولم يتخلف أحد، تماماً كما لو كان هناك اختبار من اختبارات الدراسة، وسمح للطلاب بالكشف عن مصدر المعلومات، فسيُجيب الجميع، وأي معنى للاختبار حينئذ؟!

وعرض تحمّل الأمانة ذاته مظهر من مظاهر كمال رحمته ومغفرته وعفوه ﷻ؛ ذلك أن المخلوق الناقص وإن قبل تحمّل الأمانة فلا شك أنه لن يستطيع أداءها على وجه الكمال والتمام، بل لا محالة سيحصل منه التقصير ما دام أنه مخلوق ناقص، وهذا ما حصل بالفعل لأبينا آدم عليه السلام بعد تحمّل الأمانة، يقول ابن عباس رضي الله عنهما: "عرضت على آدم [أي الأمانة]، فقال: خذها بما فيها، فإن أطعت غفرت لك، وإن عصيت عذبتك، قال: قد قبلت،

فما كان إلا قدر ما بين العصر إلى الليل من ذلك اليوم حتى أصاب الخطيئة" (١).

وإذا كان التقصير لا محالة حاصل، فإن المؤمن منهم برّبّه والمؤمّل لعفوه سيّجّه إليه بالاستغفار والتوبة، فيغفر الله له ويتوب عليه ويجيب دعوته فيظهر كمال عفوه ورحمته، وفي هذا يقول النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله فيغفر لهم» (٢).

ومن جهة ثالثة، قل لي برّبك، ربُّ هو الملك الخالق الرازق المدبر، بل وخالقنا وموجدنا من العدم، ونحن مخلوقون له ضعفاء فقراء، هذا حالنا وتلك حاله سبحانه، فما هي العلاقة المثلى بيننا وبينه ﷻ؟

لا شك أن الخضوع له والانقياد لأمره هو حيلتنا وهو أفضل حال بيننا وبينه.

ينجلي لنا الأمر أكثر بهذا المثل ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]:

لو أن ملكاً من ملوك الأرض أحسن إلى أهل مصره وعدل في حكمه وملكه، فماذا ينبغي أن تكون العلاقة بينه وبينهم؟

(١) تفسير الطبري (١٩ / ١٩٧).

(٢) صحيح مسلم (٢٧٤٩).

إن أقل ما يقدّر هنا هو التقدير والحمد والثناء والتعظيم لهذا الملك، فكيف الحال بالملك الخالق الرازق المدبّر؟ أليس من المنطقي أن يُؤلّه ويُعبد ويُذلّ له ويُخضع؟ وهذا ما يردده القرآن كثيرًا، بل هي فاتحته كما قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٢-٥]، فالخالق الرازق المدبر هو المستحق للعبادة.

فالله ﷻ لم يأمرنا بالعبادة لحاجته إليها، بل لأن طبيعة العلاقة بيننا وبينه تقتضي ذلك، وبهذا تستوعب معنى كونه غنيًّا عن عباده، وكونه لا يرضى لهم الكفر في قوله تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، فالله غنيٌّ عنا ولا يحتاج لعبادتنا، بل نحن من نحتاج عبادته.

وهل حقًّا نحتاج إلى العبادة؟

دعنا في هذه المرّة نترك الجواب للعلم الحديث المادي وملاحظاته.

فإن كثيرًا من أرباب العلم التجريبي يقرُّ بأن التعبّد والتدبُّين خاصية أساسية في الإنسان، وبهذا يصرّح المؤرخون، ومن ذلك المقولة الشهيرة للمؤرخ الإغريقي بلوتارك: "لقد وجدنا في التاريخ مُدُنًا بلا مدارس، ووجدنا في التاريخ مُدُنًا بلا حصون،

ووجدنا في التاريخ مُدُنًا بلا مستشفيات، ولكن ما وجدنا في التاريخ مُدُنًا بلا معابد" (١).

ولم يقتصر الأمر في الأمم الغابرة، بل بات فرعاً من فروع علم الأعصاب والذي أصبح يعرف باسم (Neurotheology)، أي: أعصاب علم اللاهوت!! وهو يسعى للكشف عن حقيقة العلاقة بين الجهاز العصبي وظاهرة التعبد!!

بل بلغ الحال ببعضهم إلى البحث عن الجين المسؤول عن التعبد!! وألّف في ذلك العالم الأمريكي (دين هامر) كتاباً سمّاه (الجين الإلهي: كيف ضمّن الإيمان في جيناتنا؟)، وبعضهم يبحث عن سرّ هذا التدنّين في العقل، كما فعل البروفيسور (كفن نيلسون) المختص في علم الأعصاب، وألّف كتاباً سمّاه (الدافع لله.. هل تم تسليك الدين في عقولنا؟)!!

ومهما يكن من أمر، فإن وجود هذه الدراسات دليل على إيمانهم بتجدُّر وأصالة التعبد في الإنسان (٢).

فالتعبد في الحقيقة حاجة إنسانية ملحة، وليس لله حاجة في ذلك،

﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

(١) ولذا تجد في تاريخ البشر تنوع هائل في أنواع المعبودات، حتى إن بعضهم يعبد الحجر والبقر والجرذان!

(٢) ينظر: شموع النهار، للشيخ عبد الله العجيري (ص ٣٢).

ختامًا أيها الإنسان: التَّعَبُّدُ لله تعالى من مقتضيات الكمال الإلهي أوَّلاً، فضلاً عن كونه مقتضى من مقتضيات خلقه وإيجاده لك، بل أنت أحوج ما تكون إلى عبادته، فهي غريزة في نفسك وفطرتك، فما لك بعيد عن أبواب رحمته وهو يناديك ﷻ:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۗ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦] (١)!

هَلْ خَلَقَ اللَّهُ الْكُفَّارَ لِيُعَذِّبَهُمْ؟!

يحاول كثير من اللادينيين التشكيك في الإسلام وزعزعة الإيمان الكامن في نفوس المسلمين، وذلك بإثارة الإشكالات والمغالطات في المسائل الفرعية، وهذا هو مبلغ جهدهم، فلا أحد يستطيع أو يجرؤ على كبار مسائل أصول الدين؛ كدعوى أن القرآن كذب مثلاً أو خرافة أو عديم القيمة أو ركيك اللغة، أو أن الدين الإسلامي غير متكامل في ذاته، أو غير كافٍ لحل المشكلات، أو لا يلبي حاجات ورغبات البشر، بل يندسُّون وراء مسائل فرعية، أو شبهات ملتوية، ويدسُّون هناك سمومهم، وهذا فضلٌ من الله أن حفظ لنا القرآن وحفظ لنا الدين، وكثيراً ما ترجع إثارة هؤلاء للشبهات بعكس ما راموا، فبإثارتهم للشبه ينصر الله الدين، ويحفظ العلم الشرعي الصحيح، ويظهر القول الحق، والحمد لله.

ومن هذه الشبهات الملتوية، الخاوية عروشها، دعواهم أن خلق الله للإنسان الكافر مع علمه بأنه سيُعذَّب منافعٍ للرحمة والحكمة والعدل، وغير لائق بالمقام الإلهي، فكيف يليق بالله

الرحيم العدل أن يخلق خلقًا ويقدر له أنه من أهل النار قبل وجوده وقبل عمله؟!!

هكذا يثيرون هذه الشبهة، ويركّبونها من تلك العناصر المتنافرة ويخلطون فيها الخبيث مع الطيّب، فهم قد ركّبوا هذه الشبهة من عنصرين منفكّين، واجتزؤوها من أصلين عظيمين من أصول الإسلام، ألا وهما: مسألتي القدر الإلهي، وحرية الاختيار الإنساني، وركّبوا بينهما تركيبًا متنافرًا يُخرجوا شبهة متهالكة الجذور خاوية العروش.

وفي هذه الورقة نحاول أن نكشف عوار هذه الشبهة، ونمّيز الخبيث من الطيّب، ونفكّك كل مسألة من هاتين المسألتين المركّبتين، ونعرض الصورة من كلّ جوانبها، وننظر إليها نظرًا شموليًا دون اجتزاء أفكارها؛ لتظهر الحقيقة ويزول الغبش وينجلي الغبار.

اللهم اجعل عملنا كله صالحًا، ولو جهك خالصًا، وتقبّله بفضلك يا منّان يا رحيم.



❁ تمهيد:

قبل الخوض في كشف عوار هذه الشبهة نحرر الأصول التي توضح لنا ملابسات هذه القضية، وتكشف لنا عن حقيقتها كما وعدنا، فهذا الإشكال في حقيقته اعتراض على قضاء الله وقدره، وإنكاراً لكون الكافر جانياً بكفره وظالماً بفعله، وأنه إنما كفر لكونه مجبوراً على ذلك، وليس كفره اختياراً منه، وهنا سنحرر أصول هذه المسائل قبل نقض تلك الشبهة، كما يقال في المثل (ثبّت العرش ثم أدر النقش)، وهذه المسائل هي:

- ١- حقيقة القدر ومراتبه.
- ٢- حرية الاختيار الإنساني.



❁ حقيقة القدر ومراتبه:

يُخْبِرُنَا رَبُّنَا تَبَارَكَ تَعَالَى أَنَّهُ لَا خُرُوجَ لِأَيِّ كَائِنٍ كَانَ عَنْ قَضَائِهِ وَتَقْدِيرِهِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْتُهُ بِقَدَرٍ﴾ (٤٩) ﴿[القمر: ٤٩]، وَلَيْسَ هَذَا فَحَسَبَ بَلْ قَدَّرَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ مَا يَصْلِحُهُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ بِأَعْلَى مَقَائِسِ الدَّقَّةِ، فَهُوَ سَبْحَانَهُ ﴿قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (٣) ﴿[الطلاق: ٣]، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ بِنَقْدِيرٍ﴾ (٢) ﴿[الفرقان: ٢]، فَمَا أَعْظَمَهُ مِنْ إِلَهٍ ﴿خَلَقَ فُسُوَيْ﴾ (٢) ﴿[الأعلى: ٢]، وَ﴿قَدَّرَ فَهَدَى﴾ (٣) ﴿[الأعلى: ٣].

وَأَخْبَارُ اللهِ تَعَالَى الْوَارِدَةُ فِي كِتَابِهِ يَجِبُ عَلَيْنَا الْإِيمَانَ بِهَا وَالتَّصْدِيقَ الْجَازِمَ بِهَا، كَمَا أَمَرْنَا اللهُ تَعَالَى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَيَّ رَسُولِهِ﴾ ﴿[النساء: ١٣٦]، وَمَقْتَضَى الْإِيمَانَ بِالْأَخْبَارِ الْوَارِدَةِ فِي كِتَابِهِ هُوَ التَّصْدِيقَ بِهَا، وَهَذَا التَّصْدِيقُ هُوَ مَقْصِدُ الْمُصْطَفَى ﷺ بِجَوَابِهِ حِينَ سئِلَ عَنِ الْإِيمَانِ فَقَالَ: «أَنْ تُوْمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُوْمَنَ بِالْقَدْرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ»^(١)، وَتَأْخِيرُ ذِكْرِ الْقَدْرِ هُنَا لَيْسَ تَقْلِيلًا مِنْ شَأْنِهِ، بَلْ قَدْ نَفَى النَّبِيُّ ﷺ أَصْلَ الْإِيمَانِ عَمَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِالْقَدْرِ حَيْثُ قَالَ ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرُّهُ، حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيَخْطِئْهُ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبْهُ»^(٢)،

(١) صحيح مسلم (٨).

(٢) سنن الترمذي (٢١٤٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٤٣٩).

وهذا ما فهمه ابن عمر رضي الله عنهما حين سُئِلَ عَمَّن يَرْتَابُ فِي الْقَدْرِ، فقال للسائل عنهم: "فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم براءء مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أُحُدٍ ذهبًا فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر" (١).

وبهذه النصوص وبقول الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (٤٩) [القمر: ٤٩] على وجه الخصوص وبقول الله تعالى: "يستدلُّ أئمة السنة على إثبات قدر الله السابق لخلقه، وهو علمه الأشياء قبل كونها، وكتابته لها قبل برئها" كما يقول ابن كثير رحمته الله (٢).

فحقيقة الإيمان بالقدر إذن: هو الإيمان بأن الله تعالى قدَّرَ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْأَزْلِ، وأنه سبحانه يعلم كلَّ الحوادث، فيعلم أزمانها وأماكنها وصفاتها، والإيمان بكتابته سبحانه لذلك التقدير، ومشيئته لها وإيجادها وخلقها على حسب ما قدَّرَ جل جلاله، فلا يقع شيء إلا وهو مقدَّرٌ ومكتوبٌ شاءه الله وخلقته (٣).

(١) صحيح مسلم (١).

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٤٤٦).

(٣) ينظر: العقيدة الواسطية لابن تيمية (ص ٢١)، شفاء العليل لابن القيم (ص ٢٩)، القضاء والقدر للمحمود (ص ٤٠).

ولعله بدالك بعد هذا التفصيل أن القدر أقسامٌ ومراتب، ونقول: نعم أيها القارئ الفطن، القدر أربعة مراتب، وهي:

١- العلم، والمقصود به: أن يؤمن المسلم بأن الله يحيط علمًا بكل شيء، سواءً الموجودات أو المعدومات أو الممكنات أو المستحيلات، فهو ﷺ يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون؛ ف ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿٧٥﴾ [الأنفال: ٧٥]، ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وإذا كان سبحانه يعلم حركة الجمادات وغيرها أولى، وإذا كان يعلم بالحبة في غياهب الظلمات وغيرها أخرى^(١)، ف ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ ﴿٥﴾ [آل عمران: ٥]، بل ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ﴿١٢﴾ [الطلاق: ١٢].

٢- الكتابة، والمراد بها: ما ذكره النبي ﷺ حيث يقول: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء»^(٢)، فالله ﷻ كتب مقادير كل شيء في اللوح المحفوظ، فما ﴿مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٦﴾ [هود: ٦].

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٢٦٠).

(٢) صحيح مسلم (٤٨٠٣).

٣- المشيئة، والمقصود بها: الإيمان بأنه لا يحصل شيء إلا بمشيئة الله تعالى وإرادته، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فمشيئته ﷻ مطلقة ونافذة، و ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢]، ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، فلا أحد يملك هداية التوفيق إلا الله ﷻ، حتى النبي ﷺ لا يملكها كما قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [القصص: ٥٦].

٤- الخلق، والمقصود به: الإيمان بأن ﴿ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الزمر: ٦٢]، فهو سبحانه ﴿ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وهو ﷻ خلق كل عامل وعمله، وكل ساكن وسكونه كما قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [٦١] [الصفات: ٩٦] ^(١).

فالله سبحانه يعلم بالكافر قبل خلقه وإيجاده أنه سيكفر، وأنه سيكون من أهل النار ﷻ، وكتب ذلك في كتابه المبين، وخلقه وعمله بمشيئته سبحانه، ولكن هل معنى ذلك أن الكافر مجبور على كفره؟



(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٢٢)

✽ حرية الاختيار الإنساني:

نعم نؤمن بأن الله تعالى قدّر وعلم وكتب مقادير الخلائق قبل خلقه، ثم خلقه بمشيئته على ما كتب وقدّر، ولكن الله ﷻ لم يكن ليظلم عباده ويجزيهم على ما لا قدرة لهم فيه ولا اختيار، بل الله ﷻ الذي خلقنا؛ كرّمنا وخصّنا بخصائص لم تُعط لأحد غيرنا نحن البشر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَبْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٠)، ومن تلك المكرّمات التي كرّمنا بها تمييزنا وتشريفنا من بين كلّ الخلائق بحرية الإرادة والاختيار، فبينما تؤوب الخلائق وتخضع الكائنات لله جبلةً، حيث لا تملك سوى ذلك ولا تملك حرية الاختيار والإرادة في تصرّفاتهما، يتفرّد الإنسان ويتميّز بتأليهه وخضوعه الاختياري لربه ومولاه وخالقه.

يا للكرّوة ويا للعظمة!! ما أكملها من صورة متناغمة وكمال متلائم، خلق يعبدون الله طوعاً من أنفسهم في خضمّ الشهوات والشبهات التي تصرفهم عنها!! وخلق تأخذهم أمواج الفتن والمعاصي يمنةً ويسرةً ثم يؤوبون ويرجعون إلى خالقهم ومولاهم، ويعتصمون به لا يشركون به شيئاً، متناغمين مع كلّ الخلائق التي تخضع لله جبلةً وفطرة!

وهذه هي الغاية من خلق الجن والإنس، لا حاجة من الله لتلك العبادة؛ وإنما لتتجلى صفات كماله في خلقه^(١).

فواعجبًا من كمال قدرته ﷻ؛ الذي أعطى عباده القدرة والاختيار؛ ليختاروا هم عبادته سبحانه وينالوا عظيم فضله وكرمه ﷻ، ولم يجعلهم مجبورين على عبادته؛ فإن "أمر الله أعظم من أن يجبر ويقهر، ولكن يقضي ويقدر ويخلق ويجبل عبده على ما أحب"^(٢).

(١) وتوضيح ذلك: أن الإنسان إذا أحسن وآمن أحبه الله ورحمه؛ فظهرت محبته ورحمته، وإن أساء وكفر جازاه؛ فظهر عدله وحكمته، وإن استغفر غفر له؛ فظهرت مغفرته وعفوه، ولك هذا المثل ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠]: تخيل لو أن حاكمًا لا يخطئ أحدًا في مملكته، هل لنا أن نعرف عدله؟ ولو كان كل مملوكيه محبوبون إليه لا يخطئون، فكيف لنا أن نعرف حلمه وعفوه؟ والله المثل الأعلى، ومما يدل على هذا الحديث القدسي الذي أورده مسلم في صحيحه برقم (٢٥٧٧) «يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم؛ ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد؛ ما نقص ذلك من ملكي شيئًا...».

(٢) مقولة للإمام الزبيدي رواها الإمام اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٤/ ٧٧٥).

وهذه الحرية الإنسانية الفطرية لا يُنكرها فردٌ عاقلٌ سويٌّ الفطرة؛ إذ الكيان الإنساني لا يُتصوَّرُ خلوه من الإرادة الحرة والشعور الفطري بها، بل ذلك أمرٌ ممتنع؛ لكون الشعور والإرادة من أهم ركائز الحقيقة الإنسانية^(١).

وذاك ما تقرُّ به المؤسسات والأمم والشعوب أيضًا، حيث تُسند الأفعال إلى أصحابها وتحملهم كامل المسؤولية تجاهها؛ فيمدح الإنسان ويؤدب تبعًا لإرادته وأفعاله، ولا قرار لحياة البشر إلا بهذا الاعتراف!؟

وهذا ما جاء به القرآن، فنجدُه يسندُ أفعال العباد إلى فاعليها؛ كقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ [يوسف: ٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ويبيِّن للناس الحقَّ من الباطل ويترك لهم حرية الاختيار، ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، ويعلِّلُ ﷺ بأن الثواب والعقاب يكون على حسب العمل، فإن الجزاء من جنس العمل؛ يقول تعالى في أهل الجنة: ﴿كُلُوا وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ (٢٤) [الحاقة: ٢٤]، ويقول تعالى في أهل النار: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (٤٩) [النار: ٤٩]، وأوضحُ من ذلك قوله تعالى: ﴿تَمْتَرُونَ﴾ (٥٠) [الدخان: ٤٩، ٥٠]،

(١) ينظر: درء التعارض لابن تيمية (٨/ ٤٦٤).

﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ ۖ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۖ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ ۖ ﴿٤٠﴾ مَقَامَ رَبِّهِ ۖ وَنَهَىٰ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ ﴿٤١﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۖ ﴿٤٢﴾ ﴾ [النازعات: ٣٧-٤٢]، والنصوص القرآنية في هذا المعنى كثير فليتأمل.

وهذه الحرية في الاختيار هي الأمانة التي عرضها الله ﷻ ﴿ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَيُّنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ولم تُطق كل تلك المخلوقات حَمَلَهَا وَثَقَلَهَا، وقد تفرّد الإنسان من بين كل تلك الخلائق بقوله: أنا لها، وما ذاك إلا تطلُّعاً مِنْهُ إِلَى مَنِ اللهُ ومكرماته التي لا تعدُّ ولا تحصى.

وكيف لا يطمع في الأكمل وهو مفطور على حبِّ الكمال، أم كيف لا يطمع في الأكمل وهو يعلم ما أعدّه الله له من جنّات الفردوس التي خلقها الله بيده، أم كيف لا يؤوب إلى ربّه ويخضع وهو خالقه الذي يناديه لعبادته، بل فطرة الإنسان نفسه تدعوه إلى تلك العبادة.

وما إن تحمّل الإنسان هذه الأمانة حتى كرّمه الله وفضّله على المخلوقات، بل جعلها جميعاً مسخّرةً له، بل أسجد له ملائكته، وخصّه بدخول جنته سبحانه^(١).

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢١٦، ٦/ ٤٨٨)، تفسير الثعلبي (٧/ ٦٠)، أضواء البيان للشنقيطي (٥/ ٣٦٣).

وهذا الذي قلناه هو ما صرَّح به القرآن حيث يقول: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وليس معنى هذا إنكار خلق الله لأفعال العباد، وإنما نعتقد أن الله خلقنا وأعمالنا حيث أخبرنا تعالى بذلك؛ فقال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٦١﴾ [الصفات: ٩٦]، ولكن ميَّزنا عن سائر مخلوقاته بالإرادة الحرة، وزودنا بأدوات المعرفة؛ لنعرف سبيل الخير والشـر، يقول تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ ﴿٨﴾ **وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ** ﴿٩﴾ **وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ** ﴿١٠﴾ [البلد: ٨-١٠]، وفطرنا على معرفة الطيب والخبيث لنختار ما شئنا منهما، كما قال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ ﴿٢﴾ [الإنسان: ٣]، ثم يجازينا ويحاسبنا على أعمالنا واختياراتنا؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ ﴿٧﴾ **فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا** ﴿٨﴾ **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا** ﴿٩﴾ **وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا** ﴿١٠﴾ [الشمس: ٧-١٠]، فالعبرة بما يختاره المرء ويريده؛ ولذلك لا يحاسب على ما أكره عليه؛ كما في قصة عمار بن ياسر الذي أنزل الله فيه قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦] ^(١).

(١) رواه الحاكم (٣٥٧/٢)، والبيهقي (٢٠٨/٨) وما بعدها، وصححه الذهبي، وذكر الحافظ ابن حجر اتفاق العلماء على أنها نزلت في عمار بن ياسر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ينظر: الإصابة (٥١٢/٢).

إذن لا تناقض بين القول بحرية الإرادة والإيمان بالقدر؛ كما علم النبي ﷺ ذلك للصحابة حين استشكلوا هذه المسألة بقوله: «اعملوا فكلُّ مُيسَّر لما خُلق له»، وتلا قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْتَفَى ۝٥ وَصَدَقَ بِالْحُسْنَى ۝٦ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۝٩﴾ [الليل: ٥-٩] (١).

وبهذا ينجلي لنا انسجام الإيمان بالقضاء والقدر الإلهي مع حرية الاختيار الإنساني، وتوافق الشرع مع القدر، وتوافق الأمر والخلق، وتناغم الفكر الإسلامي مع الواقع البشري والسلوك الإنساني، وبه تستقرُّ النفوس قبل المجتمعات.



(١) رواه البخاري (٤٩٤٩).

❖ نقض أصول الشبهة:

أظنُّ أننا بالبيان السابق وتجلية ذينك الأصلين أزحنا كثيراً من الغبش، وانجلى الغبار عن هذه الشبهة، وإن كنت طالباً المزيد من البيان فيها نحن نزيدك أيها القارئ العزيز.

اتضح لنا فيما سبق أن الإنسان هو الذي تحمّل الأمانة وكرّمه الله بها، وأعطاه حرية الاختيار بين الكفر والإيمان، فهو من يختار لنفسه السبيل، وعلى حسب اختياره يُجازى ويُحاسب، ولا فرق في هذه العطايا بين كافر ومؤمن، بل كلاهما لديه أدوات المعرفة والتمييز والفعل وحرية الإرادة والاختيار، وكلاهما لا يدري عن تقدير الله السابق وعن مصيره، وكلاهما أمرهما الله بالعبادة ونهاهما عن المعصية، وساوئ بينهما في التذكير والبراهين والأدلة وإرسال الرسل، فالمؤمن والكافر سواء في هذه الأمور، وهذا هو كمال العدل الإلهي ﷻ، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]، ولا سبيل حينئذٍ لنسبة الظلم إلى الله تعالى، ومثل هذا كمثّل معلم عرض على طلابه أن يختار كل منهم الوقت الذي يناسبه للتعلم، وفي وقت العرض ذاته يعلم المعلم أن فلاناً من الطلاب سيختار الوقت الفلاني والآخر سيختار الوقت الفلاني، ألا يُعتبر هذا الطالب قد اختار الوقت بكامل حريته وإرادته، ويتحمل على اختياره ذلك كامل المسؤولية؟ وهل يكون المعلم قد سلبهم

حريتهم بسبب علمه وخبرته السابقة فقط؟ وهل يمكن أن يُنسب إليه الظلم لمجرد علمه وخبرته؟ أم من الكمال علمه بأحوال تلاميذه؟ ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠] فتدبر، فإن الله ﷻ ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [١٢] ﴿[الطلاق: ١٢]، ألا يعلم بحالنا وما نحن إلا خلقٌ من خلقه؟ أم كيف يغيب عنه حالنا ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٦]؟ وفي ذات الوقت لا تعارض بين إحاطة علمه سبحانه وبين عدله سبحانه وإعطاءنا حرية الاختيار ليجازينا على حسب أعمالنا؛ ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

هذا بالنسبة للعدل الإلهي، وأما دعوى أن خلق الكافر منافٍ للرحمة فلا معنى لها؛ لأن صفة الرحمة لا بد أن توضع في مكانها وفي موضعها الصحيح ويُعطاه من يستحقها، أما بغير ذلك فلا تسمّى رحمة، بل ينقلب الحال إلى خورٍ أو ظلم.

إن حال من ينادي بالرحمة للكافر كحال مجرمٍ سفّاح أفك، سفك الدماء وقتل الأبرياء ودمّر المدن والبلدان، وحين قوضي وحوكم يصرخُ محاميه وينادي بالرحمة والعفو، ويدّعي أن من يعاقبه على إجرامه ظالمٌ أثيم؟! ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠] فتفكر.

فعدمُ رحمةِ الله تعالى لمن لا يستحقها ليس نقصاً، ورحمةٌ من لا يستحق الرحمة ليس كمالاً، وإنما تكون الرحمةُ كمالاً إذا كانت في موضعها.

وكان على المشكك قبل أن ينسب الظلم والنقص إلى الله تعالى، أن يُثبِتَ أن الكافر مستحقٌّ للرحمة، ولكنهم يتجاوزون هذه النقطة، ويقفزون مباشرةً إلى النتيجة طمعاً للتشكيك في كمال الأعلى والأعظم الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

ومن جهةٍ أخرى فإن إعطاء الإنسان حرية الاختيار يقتضي وجود الخير والشرير والمكرم والمعاقب، وأما كون الله تعالى قَدْرٌ وعِلْمٌ وكتَبٌ أنه سيكون كافراً وسيُعَذَّبُ وسيدخل النار، فهذا لا علاقة له بحرّية الاختيار الإنساني، فهو لا يعلم بذلك التقدير السابق، بل لا أحد من الخلق يعلم ما قدره الله، وهذا هو سرُّ الأمانة وسرُّ الامتحان للإنسان؛ إذ إنه لو كان يعلم ما قدره الله له لم يكن للامتحان معنى!!

وإليك هذا المثل لتتضح الصورة أكثر: تخيّل لو أن مدير الجامعة أمر بكشف أوراق الأسئلة في جميع الامتحانات الجامعية، هل يُسمى ذلك الامتحان امتحاناً؟ بل أي معنى لذلك الامتحان الذي لا يخفق فيه أحد؟ ويستوي فيه الطيّب مع الخبيث؟ ويكرم فيه الصالح مع الفاسد؟

كذلك الحال لو أدرك الإنسان حقيقة تقدير الله لما كان هناك أي معنى لحرية الاختيار تلك، ولو لم يكن من بين الناس صالح وفساد وتقي وشقي لما كانت لنا أي مكرمة ولا أي ميزة عن الخلائق، ولنُزعت عنا الخصيصة التي خصّنا تعالى بها.

فإيجاد الله الكافر في الحياة مسألةً طبيعيّةً مُتَّفَقَةٌ مع طبيعة الحياة الدنيا، بل أمرٌ ضروري لا محيد عنه، ولا تناقض بين خلق الله سبحانه للكافر وعمله وبين كون الكافر هو الذي اختار لنفسه الكفر ويتحمّل جزاء اختياره، كما قال تعالى: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]،

والمؤمن مبتلى في هذه الحياة بوجود الكافر، والكافر كذلك ممتحن بوجود المؤمن، وبذلك يستقيم الابتلاء، وفي هذا المعنى يقول الإمام القرطبي وهو يفسّر قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٠] يقول رَحِمَهُ اللهُ: "أي: إن الدنيا دار بلاء وامتحان، فأراد سبحانه أن يجعل بعض العبيد فتنة لبعض على العموم في جميع الناس مؤمن وكافر، فالصحيح فتنة للمريض، والغني فتنة للفقير، والفقير الصابر فتنة للغني. ومعنى هذا أن كل واحد مُختَبَرٌ بصاحبه، فالغني ممتحن بالفقير، عليه أن يواسيه ولا يسخر منه، والفقير ممتحن بالغني، عليه ألا يحسده ولا يأخذ منه إلا ما أعطاه، وأن يصبر كل واحد منهما على الحق، كما قال الضحّاك في معنى ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾: أي على الحق.

وأصحاب البلايا يقولون: لِمَ نَعَفَ؟ والأعمى يقول: لِمَ لَمْ أُجْعَلْ كالبصير؟ وهكذا صاحب كل آفة^(١).

فالله ﷻ شاء وخلق هذه الطبيعة للابتلاء والامتحان؛ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٧]، ولو شاء الله ما كفر به أحد ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس: ٩٩].

إذن وجود الخير والشر ضرورة كونية، وخلق الكافر وإيجاده ليس عبثاً أو ترفاً أو مجرد هوى كما يصور لنا هؤلاء المشككون، بل من وجوده حكمٌ جليلة لعله ظهر لك بعضها، وهنا نسرد لك شيئاً منها:

١- ظهور كمال قدرته ﷻ على خلق المتضادات المتقابلات، فالله تعالى الذي خلق الليل والنهار، وخلق الحياة والموت، هو الذي خلق الكافر والمؤمن والشقي والسعيد، فما أعظمه من إله! وما أجله من قوي قادر!

٢- ظهور كمال تدبيره ﷻ حيث خلق الإنسان وأعطاه الحرية في الاختيار، ولم يجعله مجبوراً مقهوراً على عبادته، وسخر له السماوات والأرض؛ ليخرج من البشر من يعبد الله طوعاً من نفسه، فما أحكمه من إله! بل هو أحكم الحاكمين.

(١) تفسير القرطبي (١٣ / ١٨).

٣- ظهور كمال قوته وملكوته وجبروته ﷺ، وآثار أسمائه التي تتضمن هذه الصفات؛ كالجبار والقهار والمنتقم والعدل وذي البطش الشديد، فهذه الصفات كمالٌ لو وُضعت في موضعها الصحيح، وعمِل بها من يستحقها، ولولا إعطاء الإنسان حرية الاختيار لما ظهرت تلك الصفات وآثار تلك الأسماء لنا.

٤- ظهور كمال عدله ﷺ، حيث يعامل كلُّ أحد عنده بالعدل سبحانه، ﴿فَمَنْ أَمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٤٨) وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا يَمْسُكُهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ [الأنعام: ٤٨، ٤٩]، ولو كان ذلك المكذب ذو نسب أو حسب كحال أبي لهب، ويُحسن سبحانه إلى المحسن ولو كان عبداً حبشياً.

وأيضاً تسويته سبحانه بين كل البشر في أدوات المعرفة والحرية في الاختيار من أكبر دلائل عدله ﷺ.

٥- ظهور كمال حلمه ومغفرته وعفوه، فلو لم يوجد أحدٌ يعذب لما ظهر لنا حلمه وعفوه عمَّن يحلم عنه ويعفو عنه، إذ الضدُّ يُعرف بضدّه، وبضدّها تتميز الأشياء.



✽ الخاتمة:

إلى هنا قد تبين لنا أن هذا اعتراض متهالك الجذور متناقض الفروع، فهو في حقيقته سوء فهم لطبيعة الكمال الإلهي، ومحاولة لإخضاعه ﷺ للحالة البشرية الناقصة، ومقارنته ومقايسته بالأحوال الإنسانية، فالله تعالى قد أعطى كل إنسان ما يهتدي به، وهداه النجدين، وأرسل إليهم جميعاً الرسل، وأنزل إليهم الكتب، وأعطى كل واحد منهم أدوات المعرفة والاختيار، ثم كل إنسان منهم يحاسب على حسب اختياره، وأما علم الله تعالى وتقديره بأن الكافر سيكون كافراً فهذا من كمال إحاطته بكل شيء علماً، ولا علاقة له بحرية اختيار الإنسان، ولا تناقض بين القدر الإلهي والحرية الإنسانية.

وصلى الله على نبيِّنا محمد وآله وصحبه وسلم^(١).



(١) إعداد: عمار بن محمد الأركاني.

فهرس الموضوعات

الموضوعات	الصفحة
المَقَرَّمَة	٥
دلالة المُقَدِّمَاتِ الأَوَّلِيَّةِ على وجود الله	٧
العَرَائِزُ الفِطْرِيَّةُ ووجودُ الله	١٦
المُتَكَلِّمُونَ وِفْطَرِيَّةُ مَعْرِفَةِ الله	٢٤
دليل الإبداع والاختراع وجولة مع الملحدين	٣٣
الإِتْقَانُ والإِحْكَامُ ووجودُ الله تعالى	٤١
كُونُ مناسبٍ للحياة!	٥١
الإِرَادَةُ الحَرَّةُ ووجودُ الله	٦٤
الإِرَادَةُ الغَائِيَّةُ ووجودُ الله	٧١
النزعة الأَخْلَاقِيَّةُ ووجودُ الله	٧٩
فَمَنْ خَلَقَ اللهُ؟ مناقشة الشبهة الإلحادية وإبراز كمال المعالجة الشرعية	٩٠
قصور العلم التجريبي	١٢٠
هَلْ نَحْنُ بِحَاجَةٍ إِلَى الأَنْبِيَاءِ وَوَرِثَتِهِمْ؟	١٢٩
إِذَا كَانَ اللهُ غَنِيًّا عَنَّا؛ فَلِمَ يَأْمُرُنَا بِعِبَادَتِهِ؟	١٥١
هَلْ خَلَقَ اللهُ الكُفَّارَ لِيُعَذِّبَهُمْ؟!	١٦٢
فهرس الموضوعات	١٨٣